حق ولدى فى الحياة

قصة حقيقية

إيڤلين مصطفى شاكر 

تصميم الغلاف

محمد الطراوى

الإخراج الفنى

صبرى عبد الواحد

إهــداء

إلى ذكـــــرى زوجى الذى أحب ابـنـنا تـامـــــر كل الحب
وكان له الرفيق والصديق فاعطاه الاحساس بالثقة والآمان
إلى ذكرى زوجى الذى كان سندا لى دائما
إلى عـثـمـان فـوزى بكل الحب والوفـاء



شـكـر

إلى من بذلت أقصى الجهد متبرعة بالكثير من وقتها فى تسجيل كلمتى هذه وصياغتها على النحو اللائق لكى تعبر عن رحلتى الشاقة فى عالم الإعاقة... إلى ابنة عمتى الأديبة جيلان حمزة التى أعطت لهذه الكلمة فرصة الانطلاق إيمانا منها بقضية الإنسان المعاق وحقه فى الحياة.

إيڤلين مصطفى شاكر



المقدمة

أرجع بذاكرتى إلى ثمان وعشرين سنة مضت، إلى اليوم الذى أخبرنى فيه الطبيب أن ابننا الوحيد معوق ذهنيا بل إن إعاقته شديدة أيضا، وأذكر هول الصدمة والهلع والخوف الذى امتلكنى من هذا الشىء المجهول: ما هو بالضبط الإنسان المتخلف عقليا؟ كل ما كان فى ذهنى هو ما رأيته فى الأفلام والمسلسلات العربية، إنسان شكله عجيب ويتصرف بطريقة غريبة وهو دائما مادة للسخرية والضحك.

كان عمرى خمس وثلاثين سنة حينما أنجبت ابنى تامر وكنت أجهل تماما كل شىء عن الإعاقة الذهنية إلا أنها حالة أليمة جدا للوالدين وإن من المألوف أن تخفى

الأسرة وجودها، أما عن الطفل أو الشخص المعاق نفسه فلا اعتبار له. كنت جاهلة رغم أن حياتى كانت متفتحة وتجاربى واسعة وقراءاتى عديدة. كنت قد عشت فى هذه الدنيا لا أعلم شيئا عن شريحة واسعة من مجتمعنا تعيش فى الظلام وتتألم.

عندما كنت أسأل فى ذلك الوقت الطبيب أو الأخصائى عن بعض المعلومات ويجيب علىّ، لم يكن يعلم أن رده هذا يفتح لى الباب على مائة سؤال وسؤال. لكنى كنت أكبح فضولى خوفا من أن أثقل عليه، وأعيش مع تساؤلاتى بمفردى لأن الذين حولى ليسوا على دراية مثلى.

وكان أن وقع بصرى ذات يوم على كتاب معروض فى متجر عام فى واشنطن وقرأت على ظهره الملخص، وكان عن قصة حقيقية لأسرة رزقها الله بطفلة شديدة الإعاقة وذهبت إلى عديد من الأخصائيين والجميع أخبر هذه الأسرة أن لا أمل فى حالة هذه

الطفلة وأن كل ما عليها أن تفعله هو أن تقدم لها الطعام والملبس وسبل العيش... لكن الأسرة لم تيأس بل كافحت وثابرت وآمنت بقدرات ابنتها... كبرت هذه الطفلة وأصبحت شخصية مميزة ومثالا للتحدى والنجاح، وهذه الأم جمعت عديدا من الأسر التى لديها طفل مثل ابنتها وأسست أول جمعية وطنية للشلل الدماغى فى الولايات المتحدة. وهذه الجمعية ساعدت وأدخلت الأمل فى قلوب الآلاف من الأهالى الذين قد قيل لهم أن لا تقدم ولا فائدة مع أطفالهم.

قرأت الكتاب وتأثرت به بشدة. إن نوع الإعاقة كانت مختلفة عن إعاقة ابنى لكن هذه القصة بالتواريخ والصور عرفتنى أن حالة تامر ليست فريدة وأنى غير وحيدة فى محنتى وأن أسراً عديدة تعيش ما نعيشه، زوجى وأنا، وأن الكفاح لابد أن يكون له نتيجة.

فى هذا الكتاب وجدت الصديق ووجدت الإجابة على كثير من تساؤلاتى لأنى أدركت أن جميع

الإعاقات لها جوانب عائلية وتربوية ونفسية متشابهة مع الفارق فى الإعاقة.

هذا الكتاب حثنى على البحث عن كتب أخرى تحكى عن خبرات أخرى مع الإعاقة، كلٌ منها لها ظروفها الخاصة لكنهم جميعا يتكلمون عن الحب والكفاح والمثابرة والنجاح.

الذى يكتب عن خبرته يريد أن يساعد الآخرين ويمدهم بالأمل والإصرار. مثل هذه الكتب التى تحكى عن خبرات شخصية حقيقية موجودة بكثرة بكل اللغات فى البلاد الغربية وتلزمنا نحن العرب أن يكون لدينا كتبنا الخاصة بلغتنا وظروفنا وتقاليدنا الخاصة، كتب تحكى عن كفاحنا أيضا. وأنا أكثر من يعلم عن أسر وأمهات وآباء عظام كافحوا من أجل أبنائهم المعاقين لكن لا يعرف عنهم أحد شيئا.

أرجو من كتابى هذا الذى يروى عن خبرتى الأليمة والمجزية فى آن واحد، أرجو أن يكون الصديق

الملهم الذى يعطى البصيرة والأمل لكل من يواجه هذه المحنة، ويعطى المعرفة والتفهم لمن يقرأ ليعرف عن عالم الإعاقة الذهنية.

وأخيرا أرجو من هذا الكتاب أن يشجع أولياء أمور آخرين أن يكتبوا عن خبراتهم حتى تمتلئ مكتباتنا نحن أيضا بتجارب مختلفة مع إعاقات مختلفة وظروف مختلفة.

طفولتى وزواجى

حين أتذكر أسرتى أستمد الإحساس بالأمان حتى بعد هذا العمر، حياتى العائلية كان فيها حب واحترام وتفاهم وفكر متفتح أيضا ومتقدم، والدى كان طبيبا قريبا جدا منا ـ ليلى وأنا ـ كابنتين له، كان يناقش معنا كل شيء، كل أمر من الأمور قابل للنقاش معه والأخذ والعطاء.

والداى لم يختلفا مطلقا أمامنا بمعنى أن ما يقوله الأب وما يبديه من وجهات نظر لابد فيها من أن تؤيده وتقف إلى جانبه أمى. يجوز أن تتحايل عليه فى غير وجودنا حتى تخفف من وجهة نظره قليلاً.. فكانت النتيجة أننا كبرنا دون إحساس بالقلق أو البلبلة. ورغم أن أمى ألمانية الجنسية تزوجها والدى بعد ما أكمل دراسته

فى ألمانيا، وجاءت معه لتعيش فى مصر، إلا أنها كانت شديدة الاحترام لآرائه ولم يحدث أن اختلفت معه حول وجهات نظره فى طريقة تربيتنا وما يجب أن نكون عليه من احترام لعاداتنا وتقاليدنا ودينا أيضاً.

أتذكر أن سألت أمى مرة حين بدأت أكبر «أنت كنت مسيحية يا أمى؟ وكيف استطعت أن تغيرى دينك؟» فأجابتنى «كل الأديان يا بنيتى ربها واحد وكلٌ يتصل به بطريقته وجوهر الأديان المعاملة. والخطأ أن يكون الإنســـان بدون دين بمعنى أنه بلا إيمان لأن الإيمان أساس لكل ما هو خير. أنا كنت مسيحية لكنى أسلمت لأنى تزوجت والدك وهو مسلم والبيئة كلها مسلمة فأتبعت الإسلام من أجل أن تكبروا فى أسرة آمنة ومستقرة فى عقيدتها». وأتذكر أنها كانت، رحمة الله عليها، عندما تبدأ فى عمل أى شئ تقول «بسم الله الرحمن الرحيم» وتشجعنا على فهم وحفظ القرآن وكان والدى يحتفل بالكريسماس معها كل عام وهو لم يكن بمثابة عيد دينى، بل مجرد تقليداً يذكرها ببلدها وعائلتها.

أمضيت طفولتى فى مدرسة للراهبات فى المنيا، كانت تشجعنا منذ الصغر على الخدمة الاجتماعية، وكانت تغرس فينا حب العطاء، أذكر أنهن كن يفهموننا أن العطاء ليس معناه أن نقدم الشئ الذى نحن فى غنى عنه ولكن أن نقتطع من أنفسنا الشئ الذى نحن فى حاجة إليه، هذا هو الخير، زرعوا فى داخلى دون أن أدرى الاستعداد للعمل الاجتماعى.

والدى ضحى كثيراً حتى يعطينى فرصة لأحسن تعليم. بعد حصولى على ما يعادل الثانوية العامة الفرنسية أرسلنى إلى القاهرة فى مدرسة داخلية، وهى الكلية الأمريكية للبنات وكانت من أرقى المدارس، حتى أتعلم اللغة الإنجليزية فلم يكن لى أى ميل للتعليم الجامعى رغم أن أمل والدى فى ذلك الوقت كان أن ألتحق أنا وليلى، شقيقتى بالجامعة.

كان كل أملى فى الحياة أن أتزوج وأنجب وأُربى أولاداً صالحين للمجتمع ولوطنهم.

* * *

تزوجت صغيرة، كان عمرى تسع عشرة عاماً تقريباً، كانت زيجة عائلية لأن الأسرتين كانتا أصدقاء وكان زوجى ضابطاً فى الجيش المصرى، حدث بيننا تآلف وميل سريع وكل الشواهد كانت تؤكد وتعطى آمالاً فى حياة سعيدة.. لكن للأسف بعدما تزوجنا كسب زوجى قضية تركات وورث ثروة كبيرة.. والمال الكثير يفسد أيضاً أشياء كثيرة.. إلتف حوله أصدقاء غير مخلصين وتغيرت المبادئ والقيم وبقينا خمس سنوات أحاول أن أنقذ الزيجة حفاظاً عليه لأنى كنت متعلقة به جداً وهو أيضاً كان متعلقاً بى بطريقته. ولكن بعد مرور سبع سنوات افترقنا.. وافترقنا فى ظروف مؤلمة بالنسبة لإنسانة كانت ترى أن دور المرأة فى الحياة الزوجية هو بناء بيت قائم على المحبة والاحترام والتآلف مثل الذى نشأت فيه.

ربما كان من الممكن أن تستمر حياتنا لو عاشت الطفلة التى أنجبتها بعد أربع سنوات من زواجنا، لكن الطفلة ماتت فى الولادة التى كانت عسرة جداً وكان

لابد أن يضحوا بها لإنقاذى، ورجعت إلى البيت أحمل أحزانى بين يدى بدلاً من طفلتى.

ودخلت لزيارتى إحدى السيدات القريبات وهى تقصد أن تواسينى، فقالت لى: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم»، فى هذا الوقت شعرت بأن هذه الآية الكريمة لا تقال فى مثل هذه الظروف وقسوت فى حكمى على هذه السيدة. ولكن بعد ذلك أثبتت الأيام أنه فعلاً «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» لأن الله سبحانه وتعالى كان مقدراً لى خطأ آخر فى حياتى. هذه الحادثة على قسوتها أكسبتنى الإحساس العميق بآلام الآخرين.. إن الإنسان تصقله الشدائد التى يمر بها فى حياته.

* * *

لم أتصور أبداً أن أعود لحياتى السابقة كشابة صغيرة فى بيت والدى بعد أن كنت مستقلة.. كما أننى لم أكن أرضى بحياة تافهة أمضى فيها وقتى فى نواد

وزيارات، فقررت أن أبحث عن عمل فى وقت كانت الفتاة لا تعمل فيه إلا قليلاً، إلا أننى لم يكن لدى أى تأهيل للعمل فأنا لم أكن أملك غير إتقان اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية ووالدى دائم القول لى «لماذا العمل يا بنيتى؟ ماذا ينقصك؟» .. وأعمامى يرددون «العمل مشقة عليك لا تحتملينها» ومع ذلك كان والدى هو الإنسان الوحيد الذى كان يمكن أن يتفهم ما بداخلى.. ونزلت أبحث عن عمل اعتماداً على نفسى لا على إتصالات عائلتى الواسعة. كنا قد تركنا المنيا لإحالة والدى إلى المعاش، وعشنا سوياً فى القاهرة.

المهم أن الإحساس بالفشل - بعد أن خرجت محطمة من تجربة زواجى - لازمنى، خاصة وإن زوجى كان دائما يؤصل هذا الشعور بداخلى، لذلك صممت على البحث عن عمل بمجهودى الشخصى. كنت أدخل المكاتب بنفسى فى شارع قصر النيل - وهذا شىء لم يكن مألوفا فى ذلك الوقت - وأطلب مقابلة المدير لأقول له «أنا عايزة أشتغل». كان الطلب ساذجا وكان الرد دائما

«تعرفى تعملى أية؟» وطبعا لم أكن أعرف شيئا سوى لغات أجنبية وقليلا جدا من الكتابة على الآلة الكاتبة. إلا أن تطلعاتى كانت بسيطة، وكنت موقنة فى ذلك الوقت أننى يجب أن أبدأ السلم من أوله، أريد فــقط أن أضع قدمى على أول درجة وبعد ذلك أستطيع أن أثبت نفسى بمعنى أننى كنت سأرضى بأى وظيفة محترمة والمادة لم يكن لها دور كبير فى تطلعاتى.. وأخيرا وجدت عملا فى شركة «الطيران البريطانية» وكانت بالنسبة لى شيئا ممتازا.

كان هذا فى عام ١٩٥٤ وكان العمل فى الشركة فترة واحدة وكانت وسيلة الإنتقال متوفرة لدى الشركة، وأيضا لى تذاكر سفر للخارج مجانا والمرتب كان واحدا وعشرين جنيها بالتمام والكمال... مبلغ محترم جدا فى ذلك الوقت. لا أستطيع أن أصف شعورى فى هذا اليوم، لقد أحسست أنى «طايرة من الفرحة» أريد أن أعثر على أقرب تليفون لأبلغ أسرتى.

وبدأت العمل بكل حماس وإخلاص ورغبة في التعلم وكنت موضع ثقة من رؤسائي وزملائي... كنت سعيدة فعلا ولم أفكر في أي لحظة أن أترك هذا العمل. ولكن الظروف بعد ذلك حكمت عليّ أن أغير عملي أكثر من مرة لأن هذه الشركة وهي B. O. A. C للطيران أغلقت بعد العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ ووضعت تحت الحراسة وقد إنتدبتني الحراسة في ذلك الوقت لأمثل الشركة مع زملاء آخرين يمثلون شركات أخرى وهذا أيضا أعطاني شعورا بالرضا عن نفسي.

أثناء وجودي بمكتب الحراسات عرض عليّ عمل بالسفارة السويدية كمترجمة. إلا أنها كانت وظيفة متعبة لبعدها عن بيتنا والعمل فترة صباحية وأخرى مسائية. بقيت في هذا العمل سنتين حتى جائني عرض آخر فترة واحدة فقط في فندق هيلتون النيل الذي كان على وشك الافتتاح كـ «Head of Front Office Cashiers» أي رئيس قسم صيارفة الاستقبال وتلقيت تدريبا للقيام بهذه المهمة.

فى هذا المكان كنت أشـعـر بالارتيـاح والتـقـدير والتفاهم التام وكنت كذلك أشعر بلذة وجودى فى وسط الأحداث لأن الشخصيات القائدة فى العالم العربى فى هذا الوقت من عـام ١٩٥٨ كـانت تتـلاقى فى فندق الهـيلتـون وأحـيـانا تلتـقى مـع الزعـيم الراحل جـمـال عـبـدالناصـر. الواقع أن هذه المعـايشـة الواسـعـة وتلك التجارب المختلفة أكسبتنى معرفة بالحياة الاجتماعية والسياسية.

فـمن الصـغر كـان لى الحظ أن أعـيش وأتابـع عن قرب أحداثا تاريخية فيصلية، فعندما كان العالم على أبواب الحـرب العالميـة الثـانيـة كنا فى ألمـانيـا. والدتى كـانت فى زيارة لأهلهـا فـعدنا بالبـاخـرة وكـان الزحـام شديدا، الكل يريد أن يصل مصر قبل بدء نشوب الحرب. والحرب بدأت فـعلا عام ١٩٣٩ - كـان عـمرى فى ذلك الوقت اثنى عـشـرة سنة - ولا أنسى أننى رأيت الشـعب الألمانى وهو يسـتـمع بكل حـمـاس إلى هتلر فى مـيدان ميونخ.

فى مدينة المنيا كان والدى شديد الإهتمام بمتابعة أخبار الحرب، يستمع للأخبار دائما ويتناقش مع أصدقائه ومع أمى وكنت أرهف السمع جيدا وأتابع هذه المناقشات. فى ذلك الوقت كان كل المصريين فى جانب الألمان يعضدون روميل الذى كان على أبواب مرسى مطروح حتى يخلصنا من الإنجليز.

ولما كبرت أكثر وتزوجت من ضابط فى الجيش عايشت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ولأنى شقراء فقد كنت أحرص كثيراً على إرتداء المصحف فى رقبتى خوفا من أن يعتقد أحد أننى من اليهود، لكن بالطبع حين كنت أتكلم كانوا يعرفون فورا أننى غير ذلك. كان عمرى فى ذلك الوقت إحدى وعشرين سنة ومرة ثانية أرهف السمع وأتابع بحكم عمل زوجى سخط الضباط المصريين وشعورهم بالخيانة من أثر معاناتهم من الأسلحة الفاسدة التى كانت متفشية وظهرت واضحة فى معارك حرب فلسطين. وعايشت أيضا حريق القاهرة وتجولت فيها فى اليوم التالى للحريق وهى مازالت

تحترق عند فندق شبرد وأحسست بصهد المبانى من حولى.

وبعد أن خلع الملك فاروق من العرش أذكر أننى استطعت أن أدخل سرايا المنتزه بعد أقل من ثلاثة أيام من رحيله. دخلت بصفة إستثنائية وتجولت فى الحجرات الخاصة للأسرة المالكة ووجدت ملابس الأميرات الصغيرات مازالت متناثرة هنا وهناك.

وجاء العدوان الثلاثى على مصر، وأتذكر أنى كنت أمضى الأمسية بنادى الطيران مع زميلاتى وعدنا إلى بيوتنا فى ظلام دامس من أثر الغارة التى تلت الإنذار الذى وجهته انجلترا إلى مصر بترك قناة السويس أو الحرب.. عدنا فى زحام شديد إلى بيوتنا بسبب الظلمة، كل إنسان يريد أن يصل إلى بيته ليستمع إلى رد الزعيم جمال عبدالناصر. ووجدت أبى وأمى يجلسان على ضوء شمعة بجوار الراديو يترقبان بحماس وقلق شديد الرد المصرى.

بحكم عـملى وخـروجى إلى المجـتـمع جـاءتنى عـروض عـديدة للإرتبـاط ولكن تجـربة زواجـى المريرة جعلتنى أتمهل وأتشكك فى كل من يتقدم إلى. كنت أقول لنفسى «إمـا أن أكـون مـرتاحـة جـدا إلى الشـخص أو لا داعى للمغـامـرة» وربما كـان السبب فى هذا أننى كنت سعيدة فى عـملى ومـع أسـرتى. وتمر الأيام وينتـابنى القلق وأتساءل بدورى عن حالة الشك المزروعـة داخلى وطبـعـا عـائلتى كـانت أسـبق فى القلق علىّ «مـاذا تطلبين... المستـحيل... لا أحـد يعـجبك... لن تبـقى الناس طويلا تخطب ودك... والسنين تجـرى...» ورغم ذلك كنت شخصيا أتراجع دائما فى آخر دقيقة ضاربة بعرض الحائط كلامهم وتحذيراتهم.

ضـحكت حين قـالت لى صـديقـتى «عليـة» وأنا أودعـها فى الليلة الأخيـرة قبل أن تسافر هى وزوجـهـا نبـيل حمـدى إلى اليابان كـسكرتيـر أول للسفـارة هناك» «لابد أن أشوف لك شخصا مناسبا وأراسلك عنه.. و.. و. ضحكت مرة أخرى وأنا أقول لها: «اعملى معروفا مش

ناقصة مشاكل.. أنا غير قادرة على الاختيار ممن حولى، فهل سأكون قادرة على أن آخذ فى الاعتبار انساناً لم أره. ولكن القدر لعب دوره معى، فلقد أرسلتْ إلىّ صديقتى خطابا تقول فيه «انه يوجد معهم مستشار السفارة باليابان اسمه عثمان فوزى تعرفه منذ طفولتها، وأنه لما رأى صورتى وعرف بظروفى تحمس لمعرفتى وأراد مراسلتى فورا لتوثيق العلاقة لحين إيجاد فرصة ويأتى بها إلى مصر». طبعا أجبتها بالرفض واستحالة الموقف والكلام فيه، ففوجئت بخطاب منه شخصيا يقول فيه إنه قرأ خطابى المرسل إلى صديقتى وإنه يتفق معى أن الموضوع بعيد عن المنطق ولكن شعوره الداخلى يحدثه أننا سنوفق معا ويكرر الرجاء ألا نحرم أنفسنا من هذه الفرصة التى من الممكن أن تؤدى إلى زواجاً ناجحاً.

لم يكن يتكلم بعاطفة شديدة وفى الوقت نفسه لم يكن باردا. بمعنى أننى لمست الكلمة التى تخاطب العقل والقلب معا. والغريب أننى عرفت من خلال خطاباته

بعد ذلك أن عرافة مجرية تنبأت له بأنه سوف يسافر إلى «آخر الدنيا» وهناك سيتعرف على من ستشاركه حياته ويعرف معها السعادة الحقة.... والغريب أيضا أننى بعد وصول خطابه مباشرة قابلت فى شارع سليمان باشا الفريق محمد صادق، كنت أعرفه معرفة عائلية وثيقة، فى ذلك الوقت كان ملحقا عسكريا فى ألمانيا وتصادف وجوده فى القاهرة فى مهمة قصيرة، وسألته: «أتعرف زميلا لك اسمه عثمان فوزى؟ أعتقد أنه كان معك فى الكلية الحربية وهو الآن فى وزارة الخارجية». فقد ورد فى خاطرى ربما يعرفه لتقارب السن بينهما ـ كنت احترم رأى محمد صادق وأقدره تماما ـ فرد علىّ فورا: «هل هناك شيء يخصك؟... إنه مثلى الأعلى.. من أيام أن كنا فى الكلية الحربية سويا... لم يكن صديقى الشخصى ولكنى كنت أنظر له كمثال للشاب المصرى الرياضى الذى لديه مثل عليا وأخلاق.... إنه أكثر من ممتاز ويا ليت يكون نصيبكما لبعض».

وكان أول خطاب وصلنى من عثمان يقول فيه «أعطينا فرصة نتعارف ببعض ولا تغلقى الباب»

فشعرت أن مقابلة محمد صادق إشارة من الله تحثنى أن أمشى فى هذا الطريق... وفعلا بعد هذا اللقاء بدأت فى مراسلته. لم أجرؤ أن أقول أى شىء عن هذا الأمر لأى فرد من أهلى أو اصدقائى لأن الموضوع كان من وجهة نظرى قصة خيالية، وهذه المغامرة بعيدة عن طبيعتى.. بعيدة عن شخصيتى... وخشيت أن يضحك من حولى منى، إلا أنه فى هذه الأيام بالذات كانت فكرة الصداقة بالمراسلة عبر البحار موضة شائعة فعلا.

بعد ثمانية أشهر تقريبا إستطاع عثمان أن يقوم بأجازة من عمله، والغريب أنه طلب الأجازة بغرض الزواج وتحمل فى ذلك المخاطرة وقال لى بعد ذلك «لم يكن عندى أدنى شك من أن زواجنا مؤكد». طبعا أضطررت أن أحكى لأهلى الحكاية كاملة قبل حضوره بأيام... وكانت أمثولة ونكتة فى نفس الوقت «إيه... إيه... طوكيو... اليابان... هى الدنيا ضاقت هنا... الخ».

والغريب أنى أيضا كنت أشعر بالاطمئنان والتفاؤل، كل تحرياتى الحذرة أسفرت عن كل خير - بل أكثر من ذلك - إعجاب بخلق عثمان الدمث الكريم.

كان قد كتب لى أنه انفصل عن زوجته من ثمان سنوات (سنة قبل انفصالى أنا عن زوجى) وأن له إبنتين يعيشان مع والدتهما فى فرنسا، وأن تجربته كانت قاسية وأنه كان دائما مترددا فى الزواج ثانية حتى سمع عنى ورأى صورتى التى جذبته بشدة.

قصة غريبة عجيبة حقا.. وكان اللقاء وكان التفاهم.... وتزوجنا فى عشرة أيام ونحن واثقان أن كلا منا وجد أليفه.

* * *

مواجهة عالم مجهول


وحان موعد رحيلنا إلى مقر عثمان فى طوكيو عاصمة اليابان وكان علينا أن نقف فى باريس حسب رغبتنا ليعرفنى على ابنتيه من زيجته السابقة والموجودتين مع أمهما هناك منذ ست سنوات، وهو دائم الكلام عنهما بالكثير من الحنان والاعزاز. ولما وصلنا باريس واجهتنا مشكلة كبيرة جدا وهى أن مكوث الابنتين مع أمهما أصبح مستحيلا لظروف خارجة عن إرادة الأم.

ولم يكن أمامنا إلا أن نأخذ البنتين معنا وقد استبعدنا الذهاب إلى أسبانيا فى رحلة شهر العسل كما كان ترتيبنا وتوجهنا رأسا إلى طوكيو، وهناك عشنا حياة عائلية مكتملة، «نيفين» الكبرى لها من العمر خمسة

عشر عاما.. و«مايرا» الصغرى إحدى عشر عاما، أحببتهما من قلبى وبادلانى الحب واتفقنا على ألا نشير إلى أن الابنتين من زوجة سابقة إلا فى أضيق الحدود لدرجة أن إحدى الصديقات الجدد ظلت على علاقة بى لمدة ثمانية أشهر لم تعرف من حقيقة الوضع شيئا.... وحملت فى ابنى تامر.

بشرى قدوم طفل صغير إضافة للعائلة قوبل بفرحة شديدة من عثمان والأولاد والأسرة فى القاهرة. أما بالنسبة لى فهذا الأمل توج شعورى بالسعادة والإستقرار النفسى.

فترة الحمل كانت سهلة وطبيعية وحين جاء ميعاد الوضع توجهت إلى المستشفى الأمريكى بطوكيو. كان الطبيب المشرف على حملى قد إستلم تقريرا مفصلا عن ظروف ولادتى السابقة وكان حريصا فى متابعة تطورات الوضع بدقة، وعندما لاحظ أن دقات قلب الجنين بدأت تضعف قرر فورا إجراء عملية قيصرية.

ولد تامر والحبل السرى ملفوف حول عنقه ولكنه سرعان ما صرخ بقوة وكل من كان فى حجرة الولادة اطمأن على سلامة الطفل مما بدى عليه من حجم وصحة وجمال.

مجئ تامر أضفى على أسرتنا مزيدا من البهجة والسعادة، كان طفلا جميلا وهادئا وتعلقت نيفين ومايرا به كثيرا، بالأخص «مايرا» التى كان شعورها بالأمومة فياضاً وكانت العين الساهرة على كل ما يخص تامر، تراقب المربية اليابانية بدقة...» ماما... فوجى سان (المربية) غيرت لتامر ولم تقفل الشباك والجو كان باردا جدا...» «ماما... ماء الحمام كان غير دافئ بالدرجة الكافية»..... وكان علىّ أن أساير مايرا حتى لاتفقد اهتمامها بتامر وفى الوقت نفسه أساير المربية التى كانت ممتازة حتى لا تغضب.

إقامتنا فى اليابان تركت فى نفسى أحلى الذكريات، إستمتعنا كأسرة بمناظرها الطبيعية الرائعة وتقاليدها

العريقة. أذكر الأعداد المهولة من الناس فى الشوارع وفى كل مكان، لكن أذكـر أيضـا النظافـة والنظام والإنضباط الذى يسود فى كل أرجاء البلاد. أذكر اهتمامهم الهائل بالطفل وإعتباره سيد المجتمع - كل ما يخصه له الأولوية فى حياتهم وفى رعاية حكوماتهم، نادرا ما سمعت عن شخص هناك يؤذى طفلا.

أذكر أيضا المساحات الكبيرة جدا التى تعرض فيها الألعاب فى المحلات العامة وكيف أن للطفل مطلق الحرية فى أن يلعب بهم دون أن ينهره صاحب المحل وكذلك طريقة تربيتهم لهذا الطفل ليكون منظما وحذرا فى معاملته مع الأشياء وخصوصا أن يكون هادئ فى الحركة والصوت.

* * *

وأنا أعيش قمة لحظات سعادتى كنت أشعر بخوف يتملكنى لا أدرى سببه.... لا أدرى ما الذى يبدد فرحتى ويشعرنى بهذا الخوف... هل الشرقيون على

وجه التحديد هم الذين يعيشون هذا الإحساس... كلما شعروا بالسعادة يقولون «اللهم أجعله خيرا!!». كلما خرج عثمان يخيل إلى أنه لن يعود... لن أراه مرة أخرى.. لقد كان التفاهم والوفاق بيننا شيئا موصولا، ومن المحتمل أن هذا هو سبب خوفى على السعادة التى أعيشها.. إلى أن عدنا إلى مصر وبلغ ابنى من العمر سنة ونصفا وتحول هذا الخوف الذى يلازمنى بلا سبب مفهوم إلى قلق بالنسبة لطفلى تامر... شئ ما غير عادى فيه... ولكن كان كل من حولى يكذبنى، حقا إنه كان طفلا جميلا، مرحا، يقظا لما حوله، لكنه لا ينطق إلا.. باه.. باه.. باه.. ولاحظت أنه لا ينمو على النمط المفروض لمثل من هم فى سنه بمعنى أنه مثلا لا يلعب بالمكعبات ويضعها واحداً فوق الآخر... لا يلتقت اللعب الصغيرة، لا يساعد فى ارتداء ملابسه، لا يحاول أن يمسك الملعقة ليأكل.. وبالأخص أنه كان لم يمش بعد.. رغم أنه كان يصلب نفسه ويستند على قطع الأثاث، وأكثر من ذلك، أنه كان عندما يريد أن ينزل من فوق

الكنبة مثلا يلقى بالوسادة أولاً على الأرض ليحمى نفسه عند النزول.

ورغم ذلك إستشرت أكثر من طبيب وأجمعوا على أن كل شئ على ما يرام، أما بخصوص المشى فبعضهم قال لى أنه نقص فى الكالسيوم والآخر أنه شلل أطفال خفيف والثالث أنه يحتاج جهازا ليسند رجليه. وفجأة فى الشهر الثانى والعشرين من عمره قام ومشى وفرحنا به جدا... إلا أننى فى قمة هذه الفرحة كان لا يزال قلقى عليه قائما لأنه لم يكن ينطق إلا بكلمة.. باه.. باه.. باه فقط.

أنظر إليه... كم كان وجهه جميلاً ومعبراً وعيناه كلها حيوية وبريق... كم كان نشطاً وعشرياً... لكنى كأم لم يفارقنى اليقين بأن نموه غير عادى.. ومرة أخرى كان كل من حولى يطمئننى قائلا لى «لأنه ابنك الوحيد لهذا أنت قلقة عليه أكثر مما يلزم... أطفال كثيرون يتأخرون هكذا». كان بداخلى فكرة أحاول أن



عثمان يلاعب تامر ١٩٦٢



..... كم كان وجهه معبرا وعيناه كلها حيوية .....

أستمد منها الطمأنينة، وهى بما أن تامر يسمع فلابد أنه سيتكلم والأكيد أنه يسمع لأنه يضحك للموسيقى ويلتفت للأصوات.... ولكن أثبتت الأيام أن هذا الإعتقاد خاطئ وأن تأخير المشى وتأخير الكلام أحيانا يكونا علامات للتخلف العقلى.

كنا كما قلت قد رجعنا من طوكيو ولم أجد من يدلنى على حقيقة الأمر رغم أن فكرة التخلف العقلى كانت بعيدة جدا عن ذهننا... وسعينا أن نسافر إلى «بنما» لوجود منصب خال هناك وبها مركزا أمريكيا هاما للعلاج يخدم القوات المسلحة الأمريكية فى المنطقة. سعينا للذهاب هناك حتى نطمئن على تامر لأن هذه البلدة أيضا قريبة من الولايات المتحدة وهذا يعنى أنه سيمكننا من مساعدته بأقصى ما يمكن إذا احتاج الأمر.

كان تامر قد بلغ من العمر سنتين ونصفا عندما سافرنا «بنما» وبمجرد أن وصلنا هناك ذهبنا إلى

المستشفى الأمريكى التى فى منطقة القنال واسمها مستشفى جورجاس Gorgas Hospital وأنا أقول لنفسى «حتى يتبينوا سبب عدم كلامه» وأردد لنفسى: «لا تقلقى، تامر ممتلئ صحة وحيوية وحاسة السمع عنده سليمة ويعرف كل المحيطين به ويعرف ماذا يرى ويعرف صديقاتى واحدة واحدة.... لابد أن السبب بسيط».

المهم أننا ذهبنا إلى المستشفى وعملوا له الفحوص اللازمة واختبارات عبارة عن العاب معينة وطلبوا منا أن نحضر فى الغد لنعرف نتيجة هذه الفحوص والاختبارات.

وجاء هذا الغد ودخلت وعثمان للأطباء....... وكانت الصدمة الكبرى حين قالوا لنا «ابنكما معوق ذهنيا شديد الإعاقة»... شعرت بجبل يقع علىّ رغم أننى لم أكن مدركة أبعاد عبارتهم بعد، فسألنا عن مستقبله فأجابوا أن مستقبله يتطلب تربية خاصة وتأهيلاً

مهنياً وأن يخطط له على أساس العيش فى الريف لأن حياة الريف بسيطة وستكون ملائمة له تماما».

لكم أن تتصوروا كيف وقع هذا الكلام علينا... ابننا تامر معوق عقليا... فى نفس الوقت الذى كنا نحلم سويا أن يكبر ويتعلم تعليما عاليا ليصبح مثل والده بل وأحسن!! تراجعت بظهرى من أمام الأطباء ولم أدر كيف وصلت إلى المنزل.... ووصلت إلى حجرة نومي وعرفت معنى أن تنطبق الجدران على من فيها.. وزحفاً وصلت إلى سريرى.. تنميل فى جسدى... شلل فى رجلى... وبقيت فى فراشي يومين أو ثلاثة لا أذكر.. الهلع هو الدم السيال الذى يجرى فى عروقى وعقلى توقف تماما... أللهم إلا أننى كنت أردد: «كنت أعرف وكنت دائمة الشعور أن هناك شيئا غير عادى فى تامر لكن أن يصل التشخيص إلى أنه متخلف عقليا بل وشديد الإعاقة هذا ما لم أكن انتظره مطلقا... مطلقا..»

الكل حول سريرى... الأصدقاء والزميلات فى السفارة والمعارف المصريون من الجالية هناك

يطمئنوننى: «موش ممكن... ده دكتور......!!!». أنا متذكرة تماما زميلة مصرية أرادت أن تطمئننى فنادت على تامر وقالت له: «تعالى يا حبيبى هات لى ورقة تواليت من الحمام حتى أمسح لك يديك» فجرى تامر وشد ورقة وقدمها لها فقالت لى: «اتفضلى... ويقول لك أنه متخلف... من هذا الـ.. الذى قال لك هذا!». ما أريد أن أقوله أننى لم أكن أدرى - ولم يكن أحد من حولى أيضا يدرى - ما هو المعوق ذهنياً، لأنه فى ادراكنا ومعلوماتنا أن المعوق الذهنى لابد أن يكون شكله عجيبا «والريالة» تتساقط من فمه وأنه يبدو أبلها وتلاحظة أى عين على الفور، إلا أننى أحب أن ألفت النظر إلى أنه ليس شرطا أن يكون المتخلف عقليا شكله لافتا للأنظار بل على العكس فى كثير من الأحيان يكون الطفل المتخلف صاحب شكل جميل ولا يمكن اكتشافه إلا بملاحظة سلوكه... مثل تامر.

ولما استعدت قواى كتبت إلى أهلى فى مصر بالحالة وطبعا الخطابات التى وصلتنى من هناك كانت

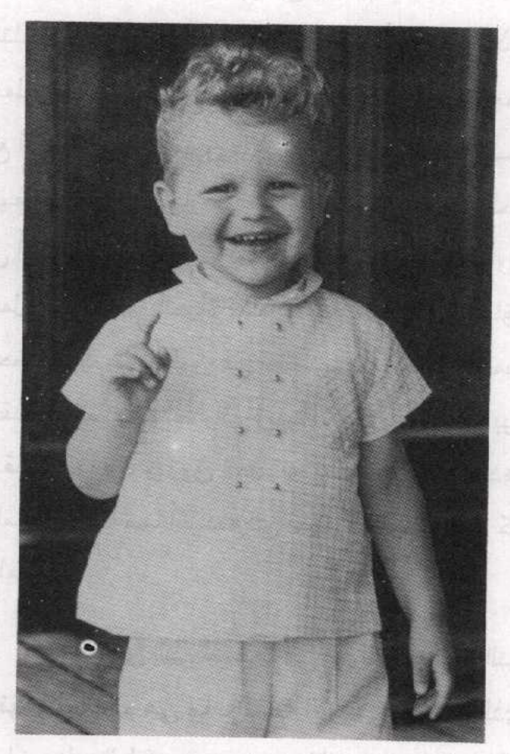
كلها إستنكارا شديدا وكل أسرتى لم تصدق أن هذا الطفل الجميل المرح معوق ذهنيا... قد يكون متأخرا قليلا لكن معوق ذهنيا وشديد الإعاقة فهذا مستحيل... وخطابات أختى ليلى كانت تحكى لى عن العالم الفلانى والمخترع العلانى الذى كان متأخرا فى دراسته ومن فصلته إدارة المدرسة بسبب عدم فهمه و... و.... و... وأنا بدورى تعلقت بهذا الكلام وهذه الحكايات وقسوت على الطبيب ولعنته بينى وبين نفسى ولم أكن أعرف أن التشخيص فعلا صحيح.

* * *

لم يكن أمـــامى أى بديل إلا أن أتحـــرك و أعـــمل بأقصى جـهدى لأساعـد ولدى. فبـرغم إعتـقـادى فى مبالغة نتيجة التشخيص، إلا أنى والحمد لله، قررت أن آخذ جميع الإحتياطات وأتبع توجيهات الاخصائيين.

بدأت مشوارى مع تامر بالتحاقى بالمركز الخاص لتأهيل الأطفال المعاقين ذهنيا التابع لمستشفى جورجاس

في طريقه إلى بنما ١٩٩٤



أسرتي لم تصدق أن تامر معوقا ذهنياً

وهناك قابلت خبرات وقابلت أناسا ذو مستوى مرتفع جداً من الإنسانية. العاملون فى مجال الإعاقة الذهنية يمتلكون مواصفات تختلف عن باقى الناس الذين يعملون فى أى مجال آخر.. بجانب تفانيهم فى العمل مع الأطفال أنهم يؤمنون بالإنسان من حيث كونه إنساناً مهما قلت قدراته، وأن الإنسان المتخلف عقليا له الحق فى أن يعامل معاملة كريمة وله الحق في أن يتعلم وأن يعمل وأن يتمتع بالحياة مثلما يتمتع أخوه الغير معاق. لاحظت أنهم لا يفرقون فى معاملتهم بين الطفل الجميل والقبيح، اللطيف والعدوانى، بين الأبيض والأسود، بين الفقير والثرى، وفروق الجنسية والديانة ملغاه عندهم تماما.. وهذا ما أكدته لى تجارب السنين مع كل العاملين.

هذه المبادئ التى لمستها فى المراكز العديدة التى زرتها فى العالم هى ما نرسخه الآن فى الشباب الذى يعمل معنا حاليا فى مصر من خلال «جمعية الحق فى الحياة للمعوقين ذهنيا» ومركز «دراسات التربية الخاصة»

التابع للجمعية لتخريج المدرسين الذين سيقومون بعملية التدريس والتأهيل هذه (وسأتكلم عن الجمعية فيما بعد) .

* * *

عثمان زوجي كان عمره في ذلك الوقت أربعة وأربعين عاما وفرحته كبيرة بهذا الإبن والعلاقة كانت قوية جدا بينهما، دائما تامر بين يديه يمضي ساعات معه يلاعبه.. يرفعه إلى السماء وتامر يكركع. ربما أنه كأب كان يحس أن هناك شيئا خطأ فيه إلا أنه لم يكن يتكلم.... وكما قلت سابقا مسألة المشي إنتهت بعد أن وجدناه في يوم من الأيام يجري مسرعاً من حجرة إلى أخرى.... أذكر أني لم أراه يحبو إلا قليلا... أما بخصوص عدم الكلام فبعض الأطباء قالوا لنا «لأنكم تتكلمون أكثر من لغة وليس كل طفل قادرا على إستيعاب هذا الخلط» . المهم أن والده كان شديد الإيمان ودائم القول «كل اللي يجيبه ربنا كويس... وأنا راضي به» ، دائما هادئ الملامح.. ثابت مثل الصخر.. ولكن لا

أستطيع أن أجزم أننى كنت أعرف ما بداخله فربما أراد أن يظهر هذا الجانب المتفائل من شدة قلقى الدائم... ولكن الذى لا جدال فيه أنه لم يتصور أبدا فى ذاك الوقت حقيقة أمر تامر. ومن الذى كان يستطيع أن يتصور أن هذا الطفل الجميل المعبر الوجه به إعاقة ذهنية شديدة!! وأن هذه الإعاقة ستظهر كلما تقدم به السن لأن الفروق فى التصرفات تصبح أوضح وأكبر مع مرور الوقت.

أحمد الله أنه ألهمنى هذه اللهفة والخوف على تامر اللذان جعلانى أبحث عن كيفية مساعدته فى وقت مبكر ولا أنتظر مثل كثير من الأهالى الذين يتعلقون بآمال وسراب وبالتالى لا يبدأون العلاج إلا فى سن متأخرة مثل الخامسة أو السادسة. علمت بعد ذلك أهمية الإسراع فى تنمية قدرات الطفل المعاق مبكرا، فمع تأخر السن يصعب تنميتها وكلما كبر الطفل ثبتت الإعاقة. وأحمد الله مرة أخرى أننى ذهبت إلى بلاد متقدمة فى هذا المجال فى الوقت المناسب.

فى مستشفى جورجاس فى قسم الأطفال المعاقة أدخلونى صالة كبيرة تتوسطها مرتبة طولها عشرة أمتار وعرضها خمسة أمتار تقريباً ومن حولها أمهات الأطفال المعاقة وأفهمونى أننى لابد أن أجعل تامر يحبو ذهابا وايابا على هذه المرتبة لأنهم حين أطلعوا على تاريخه منذ ولادته وجدوا أنه لم يمر بفترة الحبو... وأفهمونى أن الحبو مرحلة من مراحل التطور التى تؤثر على مراكز المخ ولابد أن يمر بهذه المرحلة حتى يأخذ أحسن فرصة للنمو تبعا لنظرية علمية معينة كانوا يؤمنون بها فى ذلك الوقت.

كانت العملية شاقة جداً لأن تامر عمره سنتان ونصف سنة وأطلب منه كل يوم أن يحبو ستين مرة طول المرتبة ذهاباً وإياباً كما أوصوا، وكان علىّ أن أحايله وأجرى هنا وهناك حول المرتبة وأضاحكه وأنادى عليه بل وأحبو بنفسى على المرتبة حتى يقلدنى. وكان حول المرتبة سيدات كثيرات وأطفالهن ولاحظت أن ابنى تامر حالته أخف من حالات أخرى أكثر تعقيداً

خصوصاً حيت تعرفت على أم لطفل أثرت فى جدا... كـان طفلهـا عـمـره أربع سـنوات وكـان شـديد النـشاط «Hyper active» بمعدل لا يتصوره عقل بمعنى أنه كـان يجـرى ليـلا ونـهـارا والأم وباقى أفـراد الأسـرة يجرون خلفه.... وينتهز أى فرصة ليـخرج إلى الخارج، فكنا نغلق على أنفسنا باب الصالة بالمفتاح وهو مـركز كل تفكيره ليسـتغل فرصـة أى إنسان يخـرج أو يدخل وينسى أن يغلق البـاب بالمفتـاح حتى يفـتحـه ويندفع خارجاً، مع أن إنتـباهه ومـراقبـتـه للبـاب لا تبدو عليه مطلقا.... وكان من الصعب اللحاق به ولهذا كانت أمه دائمـا ترتدى «حـذاء كـاوتش» حـتى تتمكن من الجـرى خلفه.

هذه السيدة بهرتنى بشجاعتها وتقبلها هذا الوضع بصدر رحب... لاجدال أن كل إنسان منا يسقط فى بئر من اليأس فى وقت ما.. إلا أن الشجاع هو الذى يستطيع أن يخـرج منه سـريعـا. هذه الأم كـانت دائمـاً حـاضـرة النكتة على نفسها وحالها وكانت تقول «أنا من الممكن أن

أدخل مسابقة الماراثون وأفوز فيها، ولم تكن هى فقط ولكن كل أفراد الأسرة ترتدى «الكاوتش» حتى تتمكن من العدو وراء هذا الطفل.. وكنت أشعر أنه رغم كل هذا، جميع أفراد الأسرة يحبونه حبا شديدا وكنت أقول لنفسى كلما رأيتها وابنها عند المرتبة «أحمدك يارب على ما أنا فيه - أنا ليس لى أن اشتكى إطلاقا». (أحب أن أذكر هنا أننى علمت بعد سنوات أن هذا الطفل تدرب فى مركز أبحاث فى واشنطن وتمكن من الذهاب والإياب إلى مدرسته الخاصة بمفرده بالمواصلات العامة).

بالإضافة إلى ذهاب تامر للتمرينات فى مستشفى جورجاس أدخلته فى حضانة عادية قرب بيتنا. كان يذهب إلى الحضانة ثلاث ساعات يوميا منذ الصباح الباكر. الأيام الأولى بكى فيها كثيراً إلا أنه اندمج بعد ذلك مع الأطفال. وكان طبعا موضع رعاية خاصة من المشرفة.

* * *

وفى ذات يوم قـابلت بالصـدفـة واحـدة من المتخصصات فى التربية الخاصة وتعمل فى المدرسة الخاصة التابعة للقوات المسلحة الأمريكية وبدأ بيننا حديث ودى وألتفتت نتامر تلاطفه وتكلمه ثم عرضت علىّ أن تأتى لتدريبه فى بيتنا لأننى كأجنبية لم يكن لى الحق فى الحاقه بالمدرسة الخاصة الأمريكية.. الواقع أننى تأثرت جدا لإهتمامها بتامر وبإنسانيتها... فقد كان عليها أن تقود سيارتها نصف ساعة بعد عملها إلى أن تصل إلينا داخل المدينة، كى تمضى مع تامر خمسة واربعين دقيقة فقط لتمرنه (لأنه لا يستطيع أن يتحمل تدريبا أكثر من هذه المدة).

كانت تنفرد به فى أبعد حجرة بالمنزل وقد أزالت بنفسها كل الصور المعلقة على الجدران والأشياء الملفتة حتى لا ينجذب تركيزه إليها ويتشتت، ثم تبدأ فى تنمية قدراته على النطق عند فهم ما يراه، وقالت لى: ان هذا يسمى Speech Therapy أى «علاج التخاطب» وهذا علم قائم بذاته. وتامر كان فى ذلك الوقت يستطيع الفهم

ولكنه لا ينطق بمعنى أنه إذا أراد أن يشرب مثلا يجرى يحضر لى كوبا فارغا فأفهم فورا... وبدأت هذه المدرسة تعلمه فى البداية ثلاث كلمات فقط وهى «بيبى» Baby بمعنى طفل و«بول» Ball بمعنى كرة و«كار» Car بمعنى عربة وأحضرت له عروسة صغيرة وكرة وعربة لتلعب بهم معه وتشجعه على النطق بطريقتها الخاصة، وكانت أيضا تنمى فيه قدرات تمييز الأحجام والألوان الخ..

وإستمرت على هذا الحال أربعة أشهر بمعدل ثلاث مرات أسبوعيا وقد رفضت تماما أن تتقاضى أى أجر على الإطلاق.... وفى يوم قالت لنا: «تامر لديه امكانيات جيدة وأنصحكم أن تأخذوه إلى واشنطن لتستشيروا المتخصصين هناك وتلحقوه بمدرسة تربية خاصة لأنها ستنمى قدراته إلى أقصى حد ممكن وستعلمه الاعتماد على النفس وتجعله يستطيع التعامل مع المجتمع، أما الحضانة التى يذهب إليها حاليا فلا تكفى لحالته. وألفت نظركما إلى أن تعليمه سيصل إلى حد معين فقط إذ لا يمكن أن يحصل على شهادات

مدرسية وبالتالى جامعية.... ولكنه سيستطيع بهذا التعليم أن يكتسب معلومات عامة كثيرة تساعده فى الحياة».

ولما سألتها: «متى يستطيع تامر أن يتكلم؟» ردت علىّ ببساطة «عندما يصل إلى سن العاشرة أو الحادية عشرة سيستطيع أن يعبر عن نفسه ببعض الكلمات البسيطة» ولم تكن تدرى وقع هذا الكلام علىّ، فقد كانت تكلمنى كأخصائية تعطى رأيها... خارت قواى للمرة الثانية... «يا خبر.... عندما يبلغ تامر عشر سنوات..... وبكلمات محدودة فقط!!» يا لها من صدمة...... (وفى الواقع هذا ما حدث لتامر بالفعل) لكن الحقيقة أن مواجهتها لى بهذه الصراحة رغم قسوتها جعلتنى أواجه الواقع بأسرع ما يمكن وأعرف ما ينتظرنى ولا أتعلق بأى نوع من الأمال الكاذبة.

* * *

كما قلت.... كان عثمان شديد الإيمان واسع الصدر وكثيرا ما قال لى: «يا حبيبتى هذا قدرنا الذى لا

مـفـر لنا منه... الله أعطانا هذا الطفل أمـانـة ولابد أن نعمل كل مـا فى إستطاعـتنا حـتى نعطيـه حـقـه علينا والباقى على الله، ولما كنت أمعن النظر فى وجهه كنت أشـعـر بمدى حـبـه لابنه ومـدى قـوته هو.... كـان قـويا فكنت دائمة الشعور بأنى أستند على صخرة صلبه.

لكن آلامى، ومـا كنت أعـانيـه من شك وحـيـرة ورفض لهـذا التـشـخـيص القـاسى على تامـر جـعلنى لا أدرك مـدى مـعاناة زوجى. الآن حين اسـترجع الماضى أدرك أن الصـدمـة وقـتئـذ كـانت شـديدة جدا عليـه كـمـا كانت علىّ أنا تماما، لكنه عندما رآنى فى هذا الإنهيار تماسك هو حـتى أجده سنداً لى وحـتى يقلل ما يمكن من تأثير المأساة التى نعيشها على نفوس بنتينا ونظرتهما للحياة.

إخفاء صدمته وإظهار تفاؤله المستمر كان ولا شك شيئا شاقا عليه لأنه بعد فترة ثمانية أشهر تقريبا أصيب بصداع غير محتمل ثم إرتفاع كبير فى ضغط الدم الذى

أرغمه على دخول المستشفى للإختبارات والعلاج، ومن وقتها ظل يعانى من هذه العلة.

أما بالنسبة للأختين «نيفين» و«مايرا» فبالرغم من تعاطفهما مع همومنا بخصوص تامر إلا أنهم فى هذه السن لم يدركا تماما ما نعانيه من صدمة وما تعنى هذه الإعاقة ومدى تأثيرها على حياة تامر. كانتا تلاعبانه وتدللانه كالمعتاد وتعيشان حياتهما فى مدرستهما وبين أصدقائهما.

(فقط بعد ما تزوجتا وأنجبتا فهمتا... والآن كلما تذكرنا هذه الأيام أجد التأثير الشديد على ملامحهما ويقولان «كم قاسيتما ... كيف لم ندرك مدى ما كنتما تواجهانه»!...).

على مدى حوالى شهرين أو ثلاثة شهور أعطانى عثمان الفرصة كاملة لأبكى وأصرخ كما أشاء - وإن لم أبك من أجل تامر فعلى من تنهمر دموعى؟ - وهو دائم الصبر يربت على كتفى وهو يقول «هذا قدرنا تمسكى

بالإيمان وتشجعى، ولكن فجأة وبعد هذه المدة حدث له رد فعل عكسى وثار ثورة عارمة... يومها قال لى بالحرف الواحد: «شوقى.. عاوز أقولك ان الحالة التى أنت فيها دائما أنا رافضها تماماً وسأرفضها مادمت حيا.. نحن فعلا لدينا مشكلة ولكن ليس معنى هذا أن نقتل أنفسنا أو نقض على حياتنا... أنا لم أعد أستطيع أن أراك بهذه الحالة... ولا أستطيع الاستمرار على هذه الحياة».. وإستدار خارجاً من البيت... وإستمر على هذا النحو... أول ما أظهر حزناً يغادر المنزل فورا ويغيب مدة طويلة لا أعلم إلى أين ذهب... لأنه لم يعد يحتمل صدمته فى ابنه الوحيد وصدمته فى كزوجة أيضا... طاقة إحتماله قد نفذت.

هنا كانت لى وقفة مع نفسى رغم القسوة والمرارة التى كنت أشعر بهما، وإبتدأت أقرر بينى وبين نفسى أن ابنى فعلا فى مأساة ولكنى سأخسر زوجى أيضاً.. ومهما كان بداخلى من أحاسيس متضاربة ومهما شعرت من جفاء ومرارة مفجعة إلا أن موقف عثمان هذا كان

أحسن ما فعله!! لأنى إضطررت أن أواجه نفسى وأتحكم فى مشاعرى بل وأحتفظ بها داخلى وأحاول - وقد نجحت - أن أعيش عيشة عائلية سوية معه وابنتيه ومع تامر لأن البيت اهتز هزة شديدة من جراء واقعنا وكان يمكن أن نعيش ونتنفس هذه المأساة إلى ما لا نهاية.. كان لابد لهذه الأسرة من أن تستعيد توازنها مرة أخرى.

وتعلمت مع الأيام أن أختزن مشاعرى داخلى وأظهر وجها مبتسماً وربما متفائلاً ونناقش مشكلتنا بالعقل والمنطق ونبحث لها عن الحلول الممكنة... عثمان وضع لى الخط الفاصل بين ما يؤلمنا ويحرقنا حتى الإنصهار وبين وجوب أن نعيش كأسرة سوية لها عائل لديه مسئوليات وابنتين فى مراحل التعليم الأخيرة والتزامات أسرية وإجتماعية أخرى و.. و.. وبغير هذه الطريقة كان يمكن لحياتنا الزوجية أن تفشل لأنه عادة ما يحدث بين الزوجين إنفصال حين يمران بمثل هذه الفترات العصيبة عندما يكون لهما طفل معاق فتنتهى

بينهما الحياة الزوجية وينعكس هذا الفشل أول ما ينعكس على الإبن المعاق.

ولكن يبقى شئ هام أقوله وهو رغم أن عثمان ثار وطلب منى أن أتماسك وأتمالك زمام نفسى إلا أنه لم يفقد اهتمامه بى وحنانه علىّ وكثيرا ما كان يساعدنى لأن الطفل المعاق ذهنيا بطبيعته يرهق من حوله، لأنه يكبر ومشاكله تكبر معه، يجرى هنا وهناك ودائم الحركة دائم التخريب والتكسير وفتح الدواليب والأدراج وبعثرة ما فيها واللعب بالماء والنار والأدوات الكهربائية ودائما يعرض نفسه للمخاطر فكان يحتاج منا إلى نوع من الحزم معه وتعليمه إطاعة الأوامر والسيطرة عليه، يحتاج أن تكون الأسرة متيقظة إلى كل ما يصدر عنه.... ولم يكن فى إمكانى ان أستعين بمربية أجنبية تكون على قدر وافر من الوعى لتتحمل معى جزءا من المسئولية لأن المرتب كان ضئيلا رغم أن عثمان كان فى ذلك الوقت سفيراً. كان هذا فى عام (١٩٦٤ – ١٩٦٥) وكان الرئيس جمال عبدالناصر قد حجم كادر

مـوظفى الخـارجـيـة جدا كـمـا أن ظروف الدولة لـم تكن تسمح بأكثر من هذا.

* * *

واشنطن والتربية الخاصة

لم يكن أمامنا إلا الذهاب إلى الولايات المتحدة بأسرع وقت ممكن وإستعنا بشهادات من مستشفى جورجاس (Gorgas Hospital) لطلب الاجازة... الكل فى القاهرة تعاون معنا، فقد كان عثمان من الضباط الأحرار وكانت له معزة كبيرة عند الجميع، ولما عرفوا بمشكلتنا صرحوا لنا بأجازة ثلاثة أشهر على أن يكون مستشار السفارة صديقنا نبيل حمدى - الذى كان قد لحق بنا - نائبا عن زوجى فى «بنما» أثناء غيابنا. وكان نبيل متعاونا معنا إلى أقصى مدى هو و«علية» زوجته وصديقتى، ووافقا على الإقامة مع الابنتين «نيفين ومايرا» لرعايتهما لحين عودتنا لأنهما كانا يدرسان فى المدرسة الأمريكية بمنطقة القنال ببنما.

وصلنا إلى واشنطن وبدأنا إتصـالاتنا بمسـتـشـفى «جـون هوبكنز» John Hopkins Hospital فى بلتـيـمـور بجوار واشنطن، وهى من أكبر المراكز فى العالم. هنا اليقين.. هنا الكلمة الفاصلة.. وهنا أيضا القدر المحتوم.. شعورنا لا يمكن أن يوصف.. لا يمكن أن نستوعبه نحن أنفسنا.... ما سيقال هنا هو ما سيكون.. بشكل نهائى وقاطع لا رجعة فيه.

قابلونا مقابلة طيبة. كان فى أعماقى قلق عارم فقد كنت أيضا أخشى من عدم تجاوب تامر.... ظلوا ثلاثة أيام يدرسون قدراته حتى يضعوا أيديهم على مكان الضعف أو العجز فيه وخاصة كما قلت سابقاً أن مظهره الخارجى لا يدل بأى حال من الأحوال على أنه معوق ذهنيا. فى ذلك الوقت كنا نكلمه باللغة العربية فكان علىّ أن أترجم له المطلوب منه من قبل المتخصصين على قدر إستيعابه، وأجريت له الفحوص الطبية والفحوص النفسية وإختبار القدرات وكتبت التقارير بأنه فعلا شديد الإعاقة الذهنية بسبب تلف دماغى Brain damage ناتج

عن نقص الأكسـچين أ ثناء الولادة وأن لديه شلل فى التعبير Expressive Aphasia بمعنى أنه يفهم لكن لا يستطيع أن يعبر، إلا أن امكانياته حسنة وبالتمرين يمكن أن يتقدم بل وأن هناك آمالا طيبة ولابد أن يبدأ فورا بالتربية الخاصة، لم يعرضوا علينا أى نوع من الجراحة أو العقاقير بل قالوا لنا ،ليس هناك شىء اسمه جراحة فى الإعاقة الذهنية أو عقاقير إلا إذا كان الطفل يشكو بجانب هذا من مرض عضوى كالصرع أو القلب أو ضعف الرئة ولكن الإعاقة الذهنية تتحسن فقط بالتأهيل والتربية الخاصة لا بالعقاقير.

وأذكر هنا أننا ونحن فى بنما وقبل مجيئنا إلى واشنطن أقنعنى بعض الأطباء البنميين بإجراء جراحة بسيطة تحت لسان تامر لقص وتر مشدود بين اللسان وتجويف الفك السفلى حتى يستطيع النطق، وأجريناها له فعلا... لم تستغرق دقائق إنما لم يكن لها بالطبع أى تأثير إذ بقى كل شىء على ما هو عليه .

تبعا لآراء الأطباء لم يكن أمامنا إلا أن يدخل تامر مدرسة تربية خاصة فى واشنطن. وكان شيئاً مضنياً أن يضطر عثمان للسفر إلى القاهرة ليشرح ويقنع المسئولين لانتدابه فى واشنطن مدة أطول حتى يبدأ تدريب ابنه. القلق يتضاعف... هل سيقتنعون؟.... وإذا لم يقتنعوا ما العمل؟.... إلا أنهم وقفوا مع عثمان بكرم شديد وانتدبوه للعمل فعلا فى سفارة واشنطن لمدة عام، وظلت بناتنا فى بنما فى رعاية أصدقائنا نبيل وزوجته علية.

وبدأنا نبحث عن مراكز التعليم والتربية الخاصة فلم نجد أماكن خالية وقائمة الإنتظار فى كل مركز لا يمكن حصرها رغم أنهم ينشئون مراكز جديدة باستمرار. وأخيرا قبل تامر بمركز تخاطب لحين خلو مكان له فى مدرسة خاصة.

وفى أول يوم لإلتحاقة بها كان علىّ أن أقنع تامر أن يذهب منفردا مع السيدة الغريبة عنه ويدخل معها حجرة بعيدة، فى قسم بعيد، ويغلق عليهما الباب! كان

عمره فى ذلك الوقت ثلاث سنوات وكان شديد التعلق بنا خصوصا وأنه فى بلد غريب والوجوه غريبة وهو لا يفهم ما يدور حوله. فكيف أفهمه أن عليه أن يتركنا ويذهب منفردا معها كما قالت لنا الأخصائية؟! واحتميت بالله وأنا أدعو «يا رب.. يا رب ألهمنى....» وكان الممر أمامى طويلا وعليه أن يقطعه ليصل إلى قسم التخاطب، ووجدت نفسى أنحنى بركبتى وأمسكه من كتفيه وأنظر فى عينيه بكل تركيز وأقول له «يا تامر... أنت عايز تتكلم زى كل الأطفال؟ إذا كنت عايز... روح مع الست ديه... ستعلمك الكلام ولا تخف.... أنا وبابا سننتظرك هنا لن نتحرك».

والشئ الغريب أن هذا الطفل الصغير الذى كنا نعتقد أنه لا يدرك إلا القليل أخذ يد المدرسة الواقفة بجانبه والدموع مازالت على خديه وسار بجانبها ملتفتا إلينا كل حين.

لقد كان سلوكه هذا درسا لنا لأننا كأهل نعتقد دائما أن أولادنا المعاقين لا تفهم ولا تعرف شيئا، إلا أن

بداخلهم يفهمون وإن كان غير باد عليهم، إننا نحن الذين لا ندرى مدى إمكانياتهم، وهذا أيضا ما تعلمته من المتخصصين بعد ذلك، من أن أطفالنا المعاقين يفهمون بطريقة عامة ما نقوله ويشعرون به بل إن كل شئ ينطبع داخلهم دون أن ندرى. هذا ما كان باستمرار يحاول المتخصصون غرسه فينا، نحن الأباء والأمهات، حتى ولو كان الطفل لاهٍ عنا يلعب أو يبكى مثلا. هو فقط غير قادر على التعبير عن استجابته والدليل أننى حين قلت له «تامــر روح من أجل أن تتكلم مثل الآخرين، فهمنى لأنه كان مدركا لعجزه.

لذلك دائما أقول للأهالى فى المركز عندنا فى جمعية الحق فى الحياة «لا تتكلموا عن أطفالكم معى فى وجودهم لأنهم يفهمون حتى لو بدى عليهم أنهم لا يفهمون. إن كل ما يحدث أو يقال، له وقع شديد على نفوسهم».

بعض الأطفال المعاقين ذهنياً لديهم الإنتباه والتركيز قصير جداً ومشتت إلى أقصى درجة والحركة

مستمرة... والبعض سلبى جدا وكسول الفكر وشديد الخمول - والتربية الخاصة هى التى تُقوّم الحالتين، ولكن الحقيقة التى يجب أن يعرفها الأهالى أن المعاق ذهنياً ليس مفروضا أنه لا يفهم ولا يدرى ولا يحس وأن الطفل الذى يفهم ليس متخلفا... لا بالطبع... لأن تامر يفهم أشياء كثيرة وأذكر صديقتى فى بنما، حين قالت له «هات لى ورقة تواليت حتى أمسح لك يديك» إنه جرى وأحضر الورقة وقدم يديه. كان من الممكن أن أقتنع وأرتكز على هذه القناعة من أنه فاهم وأن أصدق جميع الأصدقاء فى حكمهم على الطبيب معى بأنه لا يفقه شيئا، وفى هذه الحالة كان من الجائز أن تضيع على تامر وعلىّ فرصة مساعدته مبكرا ولكنى أحمد الله أنّ إحساسى كأم كان يؤكد لى أن هناك شيئا ما خطأ فيه، ولابد من أن أتبع رأى الأخصائيين.

* * *

طلبت منى الأخصائية بالمركز ألا نكلم تامر بالطريقة التى نكلم بها الأطفال الصغار مثل «عايز

أمبو؟، «تعمل دودو؟» بل نستعمل جملا صحيحة وبسيطة وواضحة وأنه مهم للغاية أن نستعمل معه لغة واحدة فقط ونركز عليها حتى لا يحصل فى ذهنه أى خلط ويستطيع أن يعبر عن نفسه ويتكلم يوما ما، وبسبب ظروفنا الخاصة فيجب أن تكون اللغة هى الإنجليزية.

ثم بدأت تشرح لى كيف أعلم تامر لأساعدها فى عملية التخاطب.. وتامر كان قد عرف نطق الثلاث كلمات التى تعلمها فى بنما وهى Baby طفل Ball كرة و Car عربة إلا أنه لم يكن يستطيع أن يربط بين ما قد رآه ويعرفه وبين نطق اسم ما رآه بمعنى أنه لا يوجد عنده ربط بين الفهم و التعبير، فطلبت منى أن أنفرد به فى مكان لا يوجد به شئ يجذب انتباهه وألعب معه بالعروسة والكرة والعربة، على أن أرمى له الكرة مثلا وأقول فى نفس الوقت «كرة» أو أعطية العروسة وأقول له «عروسة» أو العربة وأقول له «عربة» وعليه أن يردد ورائى ما سمعه ويعرفه ثم أرمى له بواحدة منهم دون أن أتكلم وأطلب منه أن ينطق الإسم.

وكنا نعيش فى واشنطن فى شقة صغيرة فى فندق عبارة عن صالة وحجرة ومطبخ ودورة مياه فكنت أجلسه على مائدة فى ركن المطبخ وألعب معه، إلا أنه كان يخطئ على طول الخط، فإذا بدأت بالكرة فيظل يردد كلمة كرة... كرة..... ولا يستطيع أن ينتقل إلى كلمة أخرى إذا ألقيت إليه بشئ آخر، علماً بأنه يعرف الجديد ويستطيع أن ينطقه. ومكث على هذا التمرين أسابيع وفى كل يوم أجلسه على المائدة فى ركن المطبخ فكان يضيق بى ويبدأ فى محاولة الهرب فأبدأ فى ملاطفته وملاعبته دون جدوى على الإطلاق، فلم يكن من المنتظر من وجهة نظرى، فى القريب أو البعيد، أنه سيستطيع أن ينتقل بالكلمة السليمة والمنطبقة على ما يراه أمامه، وظل يردد بالخطأ حتى مللت وكنت أقول لهم فى المركز «لاولن يتمكن من نطق ما يراه» وهم يشجعوننى بالاستمرار وعدم اليأس، وفجأة فى يوم وجدت النقلة من كلمة «بيبى» إلى «بول» خرجت صحيحة فكانت فرحتى كأنه عبر المانش، وتدريجياً

ومع التمرين اليومى زادت النقلات الصحيحة حتى أصبح يرددها بسهولة... فآمنت بقدرة العلم والإجتهاد والمثابرة.

أحب أن أذكر أن عثمان كان يشجعنى ويساعدنى لذا كانت فرصة النجاح أكبر وهذا يؤكد أن على الأسرة أن تتعاون حتى يأخذ الطفل المعاق الفرصة الكاملة لتنمية كل قدراته.

وأتذكر حادثة خلال هذه الفترة خرجت منها بتجربة قاسية جدا. كنت جالسة اقرأ فى حجرة المعيشة وكان تامر يراقب من النافذة التى كانت بالدور الأرضى أطفالا يلعبون أمامه فى الحديقة. كان سعيدا يريد مشاركتهم وكان يتنطط إبتهاجاً أمام النافذة ويصدر أصواتا يقصد بها الكلام ليلفت نظرهم إليه. فجأة سمعت الأطفال يصيحون «العبيط أهه... المجنون أهه...» شعرت بخنجر يطعنى فى قلبى وقفزت مسرعة لأبعد تامر من النافذة فرأيت الأولاد يقلدونه ويطلعون ألسنتهم له.

فى هذه اللحظة أدركت أن الآخرين لا ينظرون إلى ابنى حبيبى كما أراه أنا....طفل جميل... لطيف.. حبوب... بل يرونه فقط طفل ذو حركات غريبة وأصوات غير مألوفة. الألم الذى إعتصر قلبى ذلك اليوم لا يمكن أن أصفه.

كانت البداية لسلسلة من المواجهات الأليمة ـ مواجهة نظرات السخرية أو نظرات الشفقة أو موقف أم تخطف ابنها خوفا عليه من الإقتراب من ابنى... لكنى تعلمت أن أتحمل هذه المواجهات وتعلمت أيضا أن أتعامل معها ولا أهرب وأعتزل أنا وابنى بعيدا عن الناس.

* * *

وجاء دور تامر لخطوة تأهيل تالية وهى أن يدخل فصلا مع آخرين فى المدرسة الخاصة. هناك رأيت أعدادا مختلفة من الأطفال المتخلفين وكان العدد الموجود فى الفصل الواحد لا يزيد عن ستة أطفال فقط،

وكان عليّ أن أحضر يوما واحدا من كل أسبوع لأساعد المُدرسة، لكنى تطوعت أن أساعدها يومين وباقى أيام الأسبوع لأمهات أخريات. ولقد إستفدت من وجودى بينهم فى اليقين بأن ابنى ليس الوحيد فى هذه الدنيا الذى سلوكه غير سوى وعرفت أيضا أنه كلما كبر الطفل ونمى فهمه نسبياً زاد نشاطه المفرط لأن حب الإستطلاع لديه يزيد وبذلك يصبح أكثر مشقة لمن يرافقه. ولأنه فى كثير من الأحوال لا يستطيع الكلام فإن العدوانية تزداد داخله، الكلمة لا تأتيه بسهولة فيستخدم يديه كبديل فورى فمثلا يريد الطفل أن يلعب مع الآخرين فى الحديقة ولكنهم لا يعيرونه إهتماما فيدفعهم بقوة أو يضربهم ليلفت أنظارهم إليه. إنه لا يستطيع أن يعبر عما يريده أو يشعره فيلجأ إلى العنف. مثلا يرى إخواته يحملون حقيبة المدرسة ويخرجون كل صباح وهو أيضا يريد حقيبة مثلهم ويذهب معهم ولكنه لا يستطيع ويشعر بالظلم فينفس عن إحباطه بالضرب والقرص والتكسير والشقاوة طول اليوم لأنه غير سعيد

وأمه تحاول أن تشغله بلا جدوى لأنه لا يريد ما تقدمه له، هو يريد أن يذهب إلى المدرسة مثل إخوته، الأسباب غالبا ما تكون أكثر تعقيدا والمحيطون به لا يفهمون ويعتبرونه عدوانيا بلا سبب، والمعروف أن الطفل العادى الصغير فى فترة عدم قدرته على التعبير الكامل يكون عنيفا لكنه أول ما يبدأ الكلام ينتهى هذا العنف.

وفى حالة تأخر الطفل عن الكلام المصحوب بتأخر فى النمو العام يعتبر هذا جرس تنبيه للأهل فربما هناك شئ غير سليم وعليهم الإستشارة والإطمئنان حتى لا يفوت الطفل الإستفادة بالعلاج المبكر.

كان تامر عدوانيا بقدر ما كان لطيفا فمثلا يضرب الأطفال بدون سبب واضح أو يمسك بالحجر ويقذف به على أى شئ وكانت الأطفال تهرب منه... كان شعوره بالإحباط والغضب سريعاً جداً وإنفعالاته شديدة وعندما لا يرضى عن شئ يلقى بنفسه على الأرض ويبدأ فى الصراخ... وما أكثر الأمور التى كانت لا ترضيه!!

وعندما نكون فى زيارة ونستعد للإنصراف يبدأ فى الرفص والصراخ وعض يديه وكثيرا ما يحكم المشاهد الغريب بأن هذا الطفل مدلل لا يجد من يقوّم تصرفاته وخاصة عندما يكون هذا الطفل عمره عشر سنوات أو إثنى عشر سنة فالموقف يكون فى غاية الحرج.

وظل تامر على هذا السلوك سنوات وأسمع تعليقات الناس «أعوذ بالله.. مش قادرين يربوه» والأسوأ من هذا أن تامرا فى كثير من الأحيان يبصق كأعتراض، فأسمع عبارة «ولد قليل الأدب» وهذا الإحراج كان على الدوام. مع العلم بأن تامرا بعد كل نوبة غضب كان يهدأ ويصبح حنونا جدا وكله أسف على ما فعله، ثم يبدأ من جديد. علمت فيما بعد أن هذه الإنفعالات شائعة بين الأطفال المعاقين ذهنيا خصوصا عند التلف الدماغى Brain Damage. ان هذه الثورات قلّت جدا مع مرور السنين والتوجيه والتدريب السليم.

ولقد نصحنى الأخصائيون وأكدوا علىّ إن التوجيه يجب أن يكون بصوت هادئ ولكن بحزم، لأن العنف أو

الصوت العالى يزعجان بشدة المعاق عموما ـ سواء كان صغيرا أم كبيرا ـ ويصيبه بشلل فى التفكير فلا يفهم ما نقصده بالتحديد. فأى توبيخ يجب أن يكون بهدوء ووضوح فى التعبير، مصطحبا إظهار عدم الرضا على سلوكه، وحجب العطف عنه لفترة ما، أو بمنعه من شئ يحبه... على أن يكون هذا العقاب بعد الواقعة مباشرة وتكون محدودة المدة، ولا يصح لواقعة واحدة أكثر من عقاب واحد حتى تكون الأمور واضحة تماما للطفل ولا يحصل له أى خلط فى ذهنه.

فكرة الثواب والعقاب لابد من وجودها فى حياة الطفل المعاق فإذا أنجز شئ ولو بسيط فعلينا ان نمتدحه ونشجعه ونحكى للآخرين بفخر عن هذا الإنجاز أمامه وأحيانا نقدم له مكافأة، على أن هذا الجزاء لا يصبح حق مكتسب فيما بعد، أما إذا أساء السلوك فيعاقب، بشرط ألا يكون العقاب جسمانياً كالضرب مثلا، العقاب يكون دون إهدار كرامته أو يسبب له البلبلة والتشويش الذهنى، لكن لابد من وجود المؤاخذة فى المدرسة والبيت مثله مثل اخوته الآخرين وحتى لا يشعر بنقص عنهم.

كما أن إصرارنا على المبدأ والالتزام به هو الطريق الوحيد السريع إلى تهذيب سلوكيات طفلنا. ولنعلم نحن أن ذلك لمصلحته هو، ولأننا بذلك نستطيع إصطحابه معنا فى كل المناسبات الإجتماعية ويكون مقبولا من كل من حولنا.

لم يكن سهلا علىّ أنا شخصيا إتباع هذه التوجيهات دائما، وكنت أراجع نفسى بشدة عندما كنت أفقد السيطرة على أعصابى وأثور على تامر وأحيانا استعمل العنف معه، وكان أيضا صعبا علىّ الإصرار على المبدأ وعدم الرضوخ لعملية الضغط العاطفى الذى كان يمارسه تامر علىّ بكل براعة خصوصا فى الأماكن العامة أو فى زيارة أو أمام الضيوف ليصل إلى ما يريد، فمثلا يطلب منى نصيبا ثالثاً من الحلوى ولما أمانع يدخل فى نوبة غضب ويصرخ ويعض يديه أو أحيانا أخرى يتوسل إلىّ بالدموع والضيوف تتعاطف معه ويتدخلون لصالحه والموقف يزداد حرجا. فى هذه الحالة إذا رضخت له أشجعه على استعمال هذه الوسيلة ليصل

إلى غرضه ويدوم سلوكه الغير سوى، كان طبعا علىّ أن أتمسك بموقفى وأفهم الآخرين لماذا أطلب منهم التعاون.

كنت كثيرا ما أتذكر وأتبع النصيحة التى قرأتها وهى أن أتجنب إستعمال كلمة «لا» مع تامر إذا أراد أى شئ، بل أوجهه إلى بديل - لا أبدأ بكلمة «لا» ولكن أقول مثلا «ما رأيك أن نفعل كذا أولاً» لأن كلمة «لا» تثير لديه الإصرار والعناد. «تعالى معى نعمل هذا ثم نعمل ما تريده بعد الظهر» على شرط أن أحافظ على وعدى دائما حتى يثق فى كلامى.

وإذا ما لم يتجاوب مع إقتراحاتى أتجاهله هو ونوبة الغضب التى تنتابه وأتركه ينفعل كما يشاء إلى أن يهدأ من نفسه.

طبعا الأمور لا تمر دائما بسهولة ولكن مع مرور الوقت أدرك تامر ما هو المقبول وما هو الغير مقبول سلوكياً، وأدرك أيضا أنى عندما أعده بشئ سأنفذ وعدى.

تامـر كـان من الممكن أن يكبـر وتتـأصل داخله السلوكيات السيئة إلا أن التربية الخاصة توّجه الأسرة إلى كيفية التعامل مع الطفل وتعلم الطفل نفسه أسلوبا مقبولا ليعبر به عن نفسه كما تستغل نشاطه الزائد لتعلمه أشياءً مفيدة له، وفى حالات أخرى توقظ المعوق الخامل الكسول لينتبه إلى ما حوله من أحداث ويتفاعل مع ما يجـرى حـوله. ولابد أن ندرك نحن الأهالى أن هذا لا يعنى أن التربية الخاصة ستجعل طفلنا طبيعيا وبعلاج التخاطب سيصل ابننا إلى المقدرة على الكلام والحوار السليم، أغلب الأحيان هو فقط يكتسب حصيلة وافرة من الكلمات والأسلوب الذى يستطيع به أن يعبر عن نفسه ويتفاهم بها مع الآخرين، وإذا تعلم القراءة والكتابة فإنه كـمـا قلت من قـبل لن يصل أبدا إلى الحـصـول على شهادات رسمية وغالبا لا يستوعب تماما ما يقرأه.

ولما كانت التربية الخاصة تتميز بأنها تربية فردية بمعنى أن كل طفل يعتبر حالة خاصة منفردة له سلبياته الخاصة وإيجابياته الخاصة أيضا فهذه التربية تنمى

القدرات فى داخل كل طفل وحده إلى أقصى درجة ممكنة، وكل طفل يعمل له البرنامج التأهيلى الذى يناسبه ويتوافق معه والنتائج طبعا تختلف من طفل إلى آخر..

* * *

من الأشياء التى أذهلتنى وأنا بمدرسة تامر ومازلت أذكرها بعد كل هذه السنوات الطويلة طريقة غرس الثقة بنفس الطفل من الصغر، فلقد ذهلت حين وجدت تامرا يذهب بمفرده إلى آخر ممر طويل ويفتح الثلاجة ويضع على الصينية خمس أكواب مملوءة حليبا ثم يحملها ويعود بها كل هذه المسافة ليقدمها إلى المدرسة وزملائه فى الفصل، هذا فى الوقت الذى كنت أخاف عليه من حمل أى شئ خشية أن يقع منه، وعلمونى أنه لو فرض وأوقع ما بيديه فلا يجب أن أظهر أى إنزعاج وأقول له: «لا تقلق ماما كمان بتوقع» وأتناول المنشفة مثلا لأنظف المكان بل وأسأله المساعدة حتى لا يشعر الطفل أنه أخطأ خطأ جسيما. التصرف بهذه الطريقة يعلمه الثقة بالنفس.

المهم أن نعلمه كيف يستعمل الشئ الذى نخشى منه أن يؤذى به نفسه. الأطفال الصغار عندنا فى جمعية الحق فى الحياة يستعملون السكين على المائدة ويقشرون بها الفاكهة ويستعملون المقص ليقصوا الورق والقماش.. وعندما يكبرون يستطيعون العمل فى الورش الانتاجية لدينا لأن قدراتهم قد نمت بالتدريب منذ الصغر وتعلموا إتقان العمل والإنضباط.

فى السنة الدراسية الأولى تعلم تامر الذى كان كل شئ لديه مشتتا... تركيزه... حواسه... تعلم أولا كيف يلعب ويعمل مع باقى الأطفال، كيف يجلس ويستمع للمُدرسة، كيف يمسك القلم ويشخبط على الورق ومن ثم يرسم خطوطا على ورق كبير، تعلم كيف يركز على صفحة كتاب ويتعرف على صوره وبعد ذلك أمكن للمُدرسة أن تعلمه مبادئ القراءة والكتابة.

فى البداية لم تطلب منه التركيز أكثر من دقيقتين ثم طالت المدة تدريجياً (تامر مثلا كان لا يستطيع

الجلوس أكثر من دقيقة واحدة ولكنه تقدم بالتمرين المستمر وأصبح اليوم يستطيع أن ينشغل فى عمل ما لمدة ساعات طويلة).

فى المدرسة فى واشنطن، وحتى بعد ذلك فى أى مكان آخر، كان لا يزيد عدد الأطفال فى الفصل الواحد عن ستة أطفال ومعهم المُدرسة والمساعدة، والحكمة من ذلك أنه لا يوجد طفل معاق مثل الآخر، فكل حالة فردية ولكنهم يختارون الحالات المتقاربة فى السن والمهارات حتى تكون المنافسة ودفء المجموعة الدافع لتقدمهم.

كان سكننا بعيدا عن المدرسة. ساعة كاملة لنصل إليها ونعود فى ساعة أخرى لأقوم بالأعمال المنزلية ولأجهز الطعام، وفى الثالثة كنا نذهب مرة أخرى إلى المدرسة لنعود بتامر فى الخامسة مساء. كانت عملية شاقة ولكنها فرصتنا الوحيدة لمساعدة ابننا.

ولا أنسى أخواتى المصريات فى واشنطن... فكم شعرت بحنان وتعاطف منهم ولن أنساهن مطلقا

بالأخص واحـدة منهن لم يكن لهـا أولاد بعـد، وكنا نضحك من أنها تستيقظ عادة متأخرة، ولا نحاول الإتصال بها قبل الساعة العاشرة صباحاً. أذكر أنه لما عاد عثمان لفترة إلى منصبه فى بنما، وأنا بقيت فى واشنطن بمفردى، كنت لا أعرف كيف أقود السيارة فكان علىّ أن أستخدم الأوتوبيس العام لتوصيل تامر إلى المدرسة يوميا. وكان البرد قارصا والمطر أحيانا لا يتوقف، وقد كان تامر الطفل الوحيد الواقف ينتظر وأنا معه على المحطة لأن كل الأطفال هناك يلتحقون بالمدارس القريبة من مساكنهم حسب النظام الأمريكى، وللوصول إلى المدرسة لابد لى من ركوب مواصلتين، لذلك كان علىّ أن أبدأ مشوارى فى السابعة صباحا حتى أصل فى الميعاد المحدد. وتتكرر هذه المشقة فى العودة. أذكر أننى كنت أقف والدموع أحيانا تنهمر من عينى من شدة التعب وحصار تامر والسيطرة عليه، فقررت هذه السيدة أن تستيقظ مبكرة جدا يوميا لتأتى إلىّ بسيارتها لتصحبنى أنا وتامر إلى المدرسة ثم نعود مرة

أخرى فى الرابعة لنتسلمه.... كم أثارتنى إنسانيتها وعطاؤها ورقة مشاعرها!

وهنا تراودنى نقطة هامة لابد أن أشير إليها وهى أن الناس تتقرب من الشخص الذى تحس أنه مكافح وأنه أيضاً متفائل وشديد الإيمان. وتبتعد عن الإنسان المكتئب وكثير الشكوى... مثلهم مثل ما حدث لى تماما حين أعجبت وانجذبت بقوة لتلك المرأة التى قابلتها فى مركز «بنما» تلبس الكاوتش لتجرى خلف ابنها المعاق وهى مبتسمة وراضية. وفوق هذا كله تطلق النكات والكلمات الساخرة على حالها وحال أسرتها... ومنها تأكدت ضرورة التماسك ومواجهة الحقيقة وتقبل الواقع بايمان وتفاؤل. هكذا كنا أنا وعثمان نبتسم ونضحك ونتحمل المحنة عن رضى، حتى أن الناس من حولنا كانوا يتعجبون ولا يصدقون أن ابننا الوحيد ونحن معه نعيش مأساة. فى البداية بالطبع كان صعبا علينا أن نتظاهر ونبتسم، أن نكون هادئين وراضين، إلى أن أصبح هذا السلوك عادة مكتسبة فينا... فى الخارج مبتهجين وفى

الداخل همومنا لنا وحدنا نناقشها فقط مع المقربين الينا من الأقارب والأصدقاء.

إستغليت كل وقت فراغ لأثقف نفسى بكل ما يمكن أن يفيدنى فى معاملة تامر وتربيته وكنت أطلب المشورة دوما من المتخصصين بلا خجل.

كانوا يؤكدون لى أن الحياة النمطية والمنظمة فى إيقاعها مهمة لتامر جدا وستسهل لى كثيرا فى التعامل معه لأنه سيكون أكثر هدوءا وفعلا لمست هذه الحقيقة بنفسى فكنت بقدر المستطاع ألتزم بمواعيد النوم والأكل والتدريب والفسحة. كما نصحونى أن أشرح لتامر دائما أسباب تغيير أى نشاط قد تعود عليه أو برنامج مفاجئ سنقوم به، حتى يفهم ما يدور حوله ويطمئن، لأنه كطفل معاق ذهنيا يجد صعوبة بالغة فى مواجهة التغييرات.

كان تامر يهوى رمى الحجارة فى كل الإتجاهات كما قلت مسبقاً وكان ذلك يسبب لى إحراجا كبيرا مع

الأطفال والكبار، وكل مجهوداتى لوقف هذه الهواية باءت بالفشل.

فنصحتنى مُدرسته أن أوجه هذه الهواية إلى مكان آمن وبطريقة لا تضر الآخرين. كنت أذهب به إلى الحديقة بجوار الفندق وأشجعه أن يرمى الحجارة نحو بركة صغيرة فى الحديقة، وأخذت من هذه الغية الفرصة للعب والتعلم. كنا ننتقى الحجارة الكبيرة والصغيرة... المستديرة والمستطيلة... ونرمى سويا بعيدا وقريبا... دورى أنا ودورك أنت... نرمى هنا «أيوة»... نرمى هناك «لأ»... حتى أستنفذت منه هذه العادة السيئة فتعلمت أن أتجنب إستعمال كلمة «لا» فى شئ هو يحبه وأجد بديلاً أوجهه إليه.

عندما كنا نلعب مع تامر بالكرة كان يستطيع أن يقذف بها بعيدا ولكنه لم يكن يستطيع التقاطها أبدا إذا رميناها نحن له فكان يفتح ذراعيه بدلا من أن يضم يديه. فشرحت لى المُدرسة أنه مثلما كان عنده الربط



فى الحديقة المجاورة للفندق ١٩٦٥



كنا نشجع تامر أن ينمى قدراته البدنية لإكسابه الثقة بالنفس.

مفقودا بين المخ والعين واللسان (فى عربة، كرة، بيبى) فهو أيضا مفقود بين المخ والعين واليدين ويحتاج إلى تمرين لتقويم هذا الفقدان.

هذه المرة قمنا بالتمرين المطلوب بكل تفاؤل وحماس. كان عثمان يرمى الكرة لتامر من قريب جداً وأنا أقف خلفه وأوجه يديه ليلتقط الكرة... مرة بعد مرة ومن قريب ثم من أبعد وأبعد إستطاع تامر بعد فترة وجيزة إلتقاط الكرة بسهولة... وأكثر من هذا، أنه إستطاع فى سن الشباب أن يمارس لعبة «الإسكواش» مع والده، وهى لعبة تحتاج لسرعة فى الحركة والتركيز.

* * *

وحان موعد عودتنا إلى بنما ليستأنف عثمان مهام وظيفته الأصلية. إذن لن يستطيع تامر مواصلة تعليمه؟ وتوجهنا إلى وزارة التربية الأمريكية وأخذنا قائمة بأسماء كل المراكز الموجودة فى الولايات المتحدة وعناوينها وعلى ما أذكر أنهم كانوا تسعة وثمانين مركزا رسميا معروفا.

والخطوة الثانية أننا كتبنا اعلانا ليعلق فى هذه المراكز بأننا نريد متخصصة لطفل له من العمر أربع سنوات لترافقنا إلى بنما - وستعامل كعضوة من العائلة - حتى تقوم بمواصلة تدريبه أى إتباع منهج التربية الخاصة معه... الخ. وجاءتنا ردود كثيرة وإنتقينا أنسب واحدة تقدمت. كانت شابة ممتازة فى تخصصها وملتزمة وودودة، وهذه الصفات كلها كانت بناء على تزكية أساتذتها كتابياً لنا.

وأقام أعضاء السفارة حفل وداع لنا ولم نكن ندرى أن هذه الحفلة كانت أيضا وداعا لنا جميعا.... لكل المصريين فى الحفل... فالواقع أن السفارة أغلقت تماما بعد ثلاثة أيام، لم نكن ندرى أن الحالة السياسية قد وصلت إلى الذروة فى هذا المساء من عام ١٩٦٧ وقد تلقت السفارة فى اليوم التالى إنذارا بمغادرة أعضائها البلاد فورا.... وكانت الحرب.

* * *

قبل أن نعود إلى بنما طلبت منا الشابة المُدرسة «مس ريتا» التى إنضمت إلى الأسرة لتدريب تامر، أن أذهب به معها إلى المركز الذى درست فيه «بأناهايم» Anaheim فى لوس انجلوس (وهى مدينة تبعد عن واشنطن بحوالى سبع ساعات بالطائرة) حتى يقوم المركز بعمل تقييم له قبل أن تتولى هى مسئوليته وتسافر معنا. وفى هذا كانت مصلحة كبيرة لتامر لأنها إذا ما إختلط عليها أمر من أموره وهى تقوم بتدريبه لا تحتار بمفردها إنما تستطيع أن تبعث لهم بحالته وهم بدورهم يقومون بإرشادها. ولقد كان هذا أيضا مفيدا بالنسبة لى فى أن أرى وأتعرف على مراكز أخرى.

وفى هذا المركز وهم يقومون بعمل الإختبارات لتامر كنت أجلس بجانبه وأتابع أداءه فأكتشفت شيئا عن نفسى لم أكن أدركه من قبل.... إكتشفت أننى ضعيفة الملاحظة جداً كطبيعة خلقت بها لأنى لم أستطع أن أحل التمرين الذى أعطوه لتامر لقياس قوة ملاحظته هو.

وفى نفس هذا اليوم أيضا وهم يقومون بعمل التقييم قابلت سيدة متخصصة متقدمة فى السن لاحظت

الإرهاق الذى يبدو علىّ بسبب حركة تامر المفرطة، لم يكن يجلس دقيقة واحدة فى مكانه، فاقتربت منى وقالت لى: «أصبرى وتحملى حتى يكبر ابنك، سيتغير سلوكه للأحسن وسيهدأ بالتدريب والتأهيل والمثابرة» نظرت إليها ولم أصدق ولكنها أضافت: «كان ابنى مثل ابنك تماما والآن هو هادئ وملتزم» ولكنى قلت فى نفسى «لا يمكن أن يكون ابنها مثل ابنى»، إلا أن المستقبل أكد لى أن كلامها كان صحيحا.

وأنا اليوم حين أقول لأولياء الأمور الذين يأتون إلى مركز «جمعية الحق فى الحياة» مع أولادهم النشطين جداً جداً: أصبروا غدا سيكبرون وسيهدأون «أجدهم ينظرون إلىّ نفس النظرة هى... هى التى كنت أنظر بها للسيدة التى قابلتها فى مركز «أناهايم»، عند هذه اللحظة تنتابنى رغبة قوية فى أن أقنعهم وأقول لهم إننى كنت مثلكم تماما ولم أصدق... لكن صدقونى.... بالتربية الخاصة والتدريب سيهدأون ويستقرون.

* * *

إقامتنا فى بنما

وسافرنا جميعا إلى بنما ومعنا «مس ريتا»، ولكن ما أدهشنا كثيرا وجعل عثمان يضيق، هو أن هذه المدرسة حددت ساعات معينة فقط لتدريب تامر، وباقى اليوم كانت المسئولية علينا كاملة..!! بمعنى أنها كانت تأخذه للتدريب من العاشرة صباحا حتى الثانية عشرة فقط وبعد الظهر تأخذه مرة أخرى ساعتين للنزهة والترفيه.. كيف هذا وهى تتقاضى نصف مرتبنا بالكامل؟ بل إن الساعتين اللتين تصطحبه فيهما بعد الظهر لم نكن مقتنعين بهما كتدريب متخصص لأنها تخرج للنزهة بالعربة وتامر معها!!

ولكن مع الأيام عرفنا أنها كانت تفعل هذا لحكمة ولأصول لأن تامر وهو بمفرده لا يستطيع أن يستوعب

زمن تمرين أكثر مما حددته هى، أما بالنسبة للفترة الثانية والتى كنا نعتبرها فسحة فقد كانت بالنسبة له تمرين فى المجتمع على الطبيعة... كيف يتعامل مع الأصدقاء والأغراب، وكيف يتصرف مع الأطفال سواء كان فى حديقة أو فى زيارة.. كما أنها أرادت - بتحديد ساعات العمل معه - أن تجعل حدا بينها وبين تامر حتى يحس بالالتزام نحوها والاحترام لها كمُدرسة وبذلك تستطيع أن تسيطر عليه وألا يعتبرها جزءا من الأسرة وبذلك يدخل فى مرحلة الحب والتدليل والإصرار والعناد.

فى هذه المرحلة كان عثمان يساعدنى كل ما أمكن فى وقت فراغه، يلاعب تامر ويعلمه السباحة وركوب الدراجة... الخ، وكان تامر شديد الحب والتعلق به. أما أنا فقد كنت فى المقام الرابع بالنسبة لتامر لأننى أنا التى أقول «يجب أن ترتب ملابسك.. لا تسرف فى أكل الآيس كريم.. يكفى زجاجة «كولا» واحدة فى النهار.. لابد ان تدخل لتنام الآن..» إلى آخر هذه التعليمات

الثقيلة.. وطبعا كان تامر لا يحب هذا الحزم من جانبى لأن هناك على الجانب الآخر كان والده يعطى التدليل والحنان. كانت أغلب مناقشاتى مع عثمان لأذكره بضرورة الحزم مع تامر. وفى يوم تناقشت معه بطريقة حادة بسبب إعطائه الحلوى والكوكاكولا بلا حساب وكنا فى السيارة وكان عمر تامر ثلاث سنوات يجلس فى الخلف يلعب ولا يبدو عليه أنه يتابع المناقشة. ولكن فى اليوم التالى ونحن فى السيارة أيضا طلب من والده حلوى ثم خبط على ظهره وهو يقول له: «ماما... إذن ماما» وضحكنا كثيرا.. لم نكن نتصور أن تامر يكون على هذا المستوى من الإنتباه والفهم.

شئ عجيب هؤلاء الأولاد، واقعهم متخلف ذهنيا ولكنهم مدركون فى نفس الوقت، أى أن التخلف فى مراكز معينة فقط. وبالفعل كل أولادنا الموجودين فى مدرسة جمعية الحق فى الحياة متخلفون ولكنهم يفهمون ولذلك يأتى بعض الأهالى ويقولون لنا مثلا: «ابنى ليس متخلفا إنه يفهم كل شئ هو فقط ينقصه الكلام»....

الواقع أنهم لا يدركون أن هذا الطفل كلما كبر كلما ازداد الفارق بينه وبين الطفل العادى، وكلما كبر فى العمر أيضا كلما قلّت قدراته بالنسبة للطفل العادى الذى فى مثل عمره. وعلى هذا فالمشكلة تتزايد يوما بعد يوم لعدم وجود التدريب وإن كان هذا الفارق غير ظاهر فى البداية لأنهما مازالا صغيرين.

عثمان لم يستطع أن يخفى عنى ضيقه بسبب تحديد المُدرسة ساعات العمل مع تامر بالإضافة إلى شعوره بعدم الحرية فى بيته فلم يكن يستطيع أن يغادر حجرة نومه دون أن يكون فى كامل ملابسه، وذلك لوجود المُدرسة الشابة التى تعيش بيننا كجزء من الأسرة. ومن ناحية أخرى بما أنها شعرت فعلا أنها فرد من العائلة فكانت تدعو أصدقاءها وتستقبلهم فى البيت وتضايفهم بحرية وتقدم لهم كل ما لدينا... ولم تكن تتصور مدى ما نعانيه من ضيق مالى، وأذكر حين كانت تسألنا أن ننضم إليهم كنا نعتذر بلباقة فلم تكن ميزانيتنا تتحمل هذه الأعباء الإضافية. رغم ضراوة

هذه الأيام إلا أن عثمان والبنتين وأنا كنا أسرة مترابطة ومتعاونة ومضحية بكل شئ فى سبيل مصلحة تامر.

بعد فترة من تدريب تامر إضطرت «مس ريتا» أن تتصل بالطبيب فى «أناهايم» تطلب منه المشورة بخصوص نشاط تامر المفرط الذى يعوقها بشدة فى تدريبه، فنصحها الطبيب أنْ تجرب اعطاءه عقارا معينا لعله يقلل من هذا النشاط ويزداد تركيزه. وكانت التجربة... وحصل ما حصل...!! إن تامر تحول فى يوم وليلة من طفل لطيف ومرح إلى طفل يصرخ على الدوام ويخبط رأسه على الجدران ويعض يديه حتى تنزف. إنهارنا ريتا وأنا وإتصلنا بالطبيب مرة أخرى فقال لنا أن نضاعف كمية الجرعة. نظرت ريتا وأنا كل منا إلى الأخرى وفى لحظة واحدة صحنا.. «لن نفعل وليكن ما يكون!» وإستغنينا عن الدواء كليةً وإستأنفت مس ريتا تمريناتها مع تامر راضية بالواقع وجاهدة بأن تتغلب على الصعوبات.

بمرور الوقت قدرنا مدى إخلاص ريتا فى عملها ومقدار مهارتها فى تخصصها، كانت حسنة العشرة وكانت لها لمسات رقيقة لكل منا، ومرحها كان يضفى على بيتنا السرور والبهجة. أحببناها بكل جوارحنا وخصوصا تامر الذى كان لها تأثير كبير عليه وكان يناديها باسم «تيتش» Teacher وظل يذكرها بحنان لسنوات طويلة، هى... وصديقه الحميم «فونا».

ولـ «فونا» قصة. كان تامر يخاف الكلاب بطريقة هيستيرية... كلما رأى كلبا من بعيد صرخ وتشنج ولا يهدأ إلا إذا إبتعد الكلب تماما. شعرنا بقلق من أن هذا الرعب الغريب سيسبب مشكلة فى حياة تامر فنصحتنا «ريتا» أن نشترى كلبا صغيرا جدا ونعلم تامر أن يعتنى به ويلعب معه. إشترينا فعلا هذا الكلب المسكين وأطلق عليه تامر اسم «فونا» وتحمل فونا «شيل وحط» سيده الصغير بكل صبر وتسامح وسرعان مازال خوف تامر من الكلاب لأنه كلما رأى كلبا صغيرا أم كبيرا كان يشير إليه ويصيح «فونا، فونا».... وهكذا كان علينا أن نفكر

دائمـا فى طرق عـمليـة نحل بهـا المشـاكل التى كـانت تواجهنا بخصوص تامر.

أتذكر أيضا أن تامرا كان قليل النوم جدا فكنا نظل الليل بطوله فى حالة يقظة... هدانا الفكر أن نعمل أمام باب حـجرته حـاجزا خشـبيـا يثبت فـترة الليل على أن يكون الباب مفتوحا بيننا وبينه وبذلك نستطيع النوم ولا نجـرى وراءه فى أرجـاء البـيت وهو يلعب فى الكـهـرباء وفى علبة الصابون المبشور وفى كل ما تصل إليه يداه.

* * *

مرت علينا سنة كاملة وفى نـهايتـها قالت لنا ريتا «أنا تعلقت بتامر أكثر مما يجب وهو الآن يعتبرنى جزءا من الأسرة لأنى أعـيش معكم وقد عرف نقـاط ضعفى نحوه ويستغلها حتى يتهرب من العمل الجاد. أنا أعطيته كل مـا عندى وأصبح الآن مـحتاجـا لحياة اجـتماعـيـة مـختلفة مع زملاء فى مـدرسة كأى طفل آخر»... كما أنهـا ذكرت لنا أنهـا قد تعلمت الكثيـر من وجودها بيننا

كأسرة لها ابن معاق، وأنها بعدما عايشت المشاكل اليومية التى تواجه الأسرة ليلا ونهارا.... ستتابع فى المستقبل أسلوبا أكثر تفهما فى مناقشاتها مع الأهالى.

أما أنا فاكتسبت الكثير أيضا، كنت أراقب مس ريتا حتى أتعلم منها كيفية معاملة تامر الصحيحة وفى نفس الوقت كنت أقرأ العديد من الكتب عن الإعاقة خصوصا تلك الكتب التى تتحدث عن التجارب الشخصية للأهالى الذين سبقونى فى المحنة وكنت أمعن فى القراءة لاكتسب ما يفيدنى ومنها تعلمت الكثير وعرفت أيضا أن هناك أمهات وآباء كثيرين واجهوا مثل حالة ابنى بل أشد منها وأنهم صبروا وثابروا فى تأهيله حتى وصلوا به إلى بر الأمان.

بدأنا عثمان وأنا نتخذ الخطوات التى أوصت بها مس ريتا واستقر رأينا على اختيار انجلترا لنلحق تامر فى مدرسة هناك، لأنها بلد قريب من مصر ولغتها معروفة ومتداولة فى بلدنا والمرور عليها من الأصدقاء

المصريين كثير.. وبدأت العجلة تدور معنا في نفس الطريق السابق.... طريق واشنطن الذى سلكناه من قبل، فجمعنا أسماء المراكز من وزارة التربية الإنجليزية ثم نسخنا التقارير وأرسلناها للمراكز نطلب فيها مكانا لتامر، إلا أن الردود كانت دائما بالاعتذار لعدم وجود أماكن خالية.. ومع وصول كل خطاب بالرفض كانت آمالى تتحطم وتتنازعنى أحاسيس متضاربة لأنى أريد له القبول في إحدى المدارس وفي نفس الوقت كنت أخشى يوم الفراق. وعندما إحتفلنا بعيد ميلاد تامر الخامس كنت أسأل نفسى «يا رب هل هذا هو آخر عيد ميلاد سيقضيه معنا... وبعدها ستكون بيننا بحار وربما محيطات؟».

كانت زوجة السفير البريطانى على صلة بى. وهى تعرف مشكلتى، فنصحتنى أن آخذ تامر وأسافر انجلترا وأذهب إلى المراكز بنفسى ومعى ابنى أدق على الأبواب «فلعل وعسى» وقالت لى: «أنا عندى شعور قوى بأنهم حين يتعرفون بكما سيكون لهذا تأثير أقوى من أرسال

الخطابات والتقارير والتوصيات». سبق أن كانت حرم السفير ترفق توصياتها مع خطاباتى بكلمة تقول فيها بما معناه «إننى أعرف هذه الأسرة وأنها أسرة تتحمل المسئولية»، و كان المقصود من أسلوبها هذا أن تعرفهم بأننا صادقون وملتزمون لأن هناك بعض الأهالى من غير البريطانيين يلحقون طفلهم بالمدرسة ولا يدفعون بعد ذلك النفقات المطلوبة أو يتركون الطفل ولا يعودون مرة أخرى، فكان المسئولون يتجنبون قبول الطفل الأجنبى. ولم تكن تستطيع حرم السفير التوصية بأكثر من هذا لأن الوساطة فى هذه الأمور غير مجدية أصلاً. فأخذت بنصيحتها وعزمت على السفر مع ابنى إلى انجلترا.... لأدق الأبواب.

وفى إحدى الليالى إستيقظت قرب الفجر فوجدت عثمان جالسا إلى مكتبه الموجود فى حجرة نومنا ومنهمكا فى كتابة شئ ما، وقال لى «جاءتنى فكرة وألحت علىّ فى أن أقوم وأكتب خطابا للرئيس جمال عبد الناصر أعرفه بمحنتى.... وبأننا سنفترق

عن ابننا وأسأله إن أمكنه أن ينقلنى فى مكان قريب من انجلترا لأكون بجانب ابنى، فقلت له: «يا عثمان هل هذا معقول... هو ذهنه يحتمل... ونحن فى عز النكسة.... ثم لن يمكن أن يصل إليـه خطابك هذا».. فـرد علىّ: «والله سأحاول وسأرسل خطابى بالحقيبة الدبلوماسية والباقى على الله»، وكنت أعرف أن سكرتارية الرئيس عبد الناصر تحدد إلى درجة كبيرة نوعية الخطابات التى يطلع عليها. المهم أنه كتب الخطاب فى تلك الليلة وأرسله.... ولم نسمع أى أخبار بعد ذلك.. ولم نفكر فى الموضوع مطلقا... موضوع هذا الخطاب الذى كتب فى لحظة يأس... وكأننا ألقينا به فى البحر تماما.

وفى أوائل شـهـر يونيـو إتصل عـثـمـان بوزارة الخارجية فى القاهرة يطلب أجازة ليصحبنى وتامر إلى لندن. وجاء الرد علينا بأنه لا يمكن أن يقوم بأجازة لأنه منقول إلى بلد آخر.. ووقعنا فى حيرة... منقول إلى أين؟ وكان قد أشار عثمان فى خطابه بأنه عرف أن سفيرنا فى هولندا قد إنتهت مدة خدمته وأنه يأمل أن

يذهب إلى هناك... إلا أن هذا الأمل زال تماما لمعرفتنا بعد ذلك بمدى التكالب فى وزارة الخارجية على المراكز التى فى أوروبا.

كان قد مر حوالى خمسة أشهر على الخطاب الذى أرسله عثمان وكنت أقول لنفسى «ليكن أى مكان فى أوروبا وليس أمريكا التى فى آخر الدنيا» لأن التذكرة من بنما إلى لندن تتكلف حوالى الألف دولار ونحن لا نستطيع دفع ثمنها إلا بمشقة شديدة جدا.

وأخرجنا من حيرتنا تلغراف من أختى ليلى وفاروق زوجها يخبرنا بأن حركة التنقلات ظهرت وتم تعيننا فى هولندا.!! لا يمكن أن أصف شعورنا حين سمعنا هذا الخبر المعجزة.. وكانت سعادة عثمان لا توصف وخاصة أنه شعر أن إحساسه كان صحيحا حين كتب رسالته فى تلك الليلة.

* * *

بدأنا نستعد للرحيل من بنما وكان صعبا علينا أن نفترق عن «ريتا» التى كانت إكتسبت مكانة خاصة فى أسرتنا، خصوصا أننا كنا نعلم أن المسافة التى ستكون بيننا ستجعل فكرة التقائنا مرة أخرى غير واردة.

تركنا بنما هذا البلد الإستوائى الجميل الذى كان غنيا بنباتات لم أرَ من قبل فى مثل زهو ألوانها وخضرتها، وكان بعض من أوراق الشجر يبدو كالزهر تماما... باللون الأصفر والأحمر والأزرق والبنفسجي... وحين نقترب منه نجده ورقا للشجر وليس زهرا.

أذكر أن المطر كان ينهمر يوميا بغزارة ولكن لفترات قصيرة والناس لا تعطل مصالحها.. هناك من يجرى ويحمى نفسه تحت مظلة وهناك من يستعمل الجرائد ليحمى رأسه من البلل... ثم يستأنفون حياتهم لأن الدنيا تجف فى دقائق قليلة من شدة الحر.

وأحيانا فى فترة الأمطار تنهمر من السماء شلالات من الماء تملأ قلوب الأجانب بفزع شديد حين

يشاهدونها لأول مرة ويرون النهار ينقلب إلى ظلام دامس فى لحظة وتستمر هذه الحالة لساعات طويلة وأحيانا أياما.

أذكر أيضا إحتفالات الكرنفال التى كانت تستمر ثلاثة أيام يرقص فيها أهل بنما ليلا ونهارا من غير إنقطاع فى الشوارع والحانات على أنغام موسيقاهم المرحة.

كم كانت بنما بلدا جميلة ونظيفة ومضيافة خصوصا معنا نحن المصريين، وشعبها دائم القول لنا «نهنئكم على تحرير قنال السويس، عقبالنا بأن نحرر قنالنا مثلكم».

تركنا «نيفين ومايرا» فى الجامعة بالقسم الداخلى ليستكملوا دراساتهما على أن يلحقوا بنا بعد إنتهاء العام الدراسى. وشرعنا عثمان وأنا فى زيارة المكسيك لمدة أربع أيام فى طريقنا إلى هولندا حتى نتعرف على هذا البلد الجميل ونزور معالمها. وصلنا فى الظهيرة ووضعنا

أمتعتنا فى حجرة الفندق ونزلنا نتجول فى المدينة ثم دخلنا مسرحا للفنون الشعبية المكسيكية وكان العرض رائعا وممتعا للغاية. قبل عودتنا إلى الفندق ذهبنا إلى مطعم لتناول عشاء خفيف وكان فى قائمة الوجبات حساء «أم الخلول» وعزمنا أن نجرب مذاقها لأنها كانت غير مألوفة لنا. تامر رفض بشدة حتى أن يتذوقها.

رجعنا إلى الفندق مرهقين لنأخذ حصتنا من النوم ونستعد للبرنامج الحافل الذى ينتظرنا فى اليوم التالى، وفى نصف الليل وفى وقت واحد إستيقظنا عثمان وأنا بشعور فظيع بالأعياء الشديد والإسهال الأشد، وبعد وقت قليل كنا أنا وهو لا نكاد نستطيع أن نصلب طولنا ونتأرجح بخطواتنا ونستند على الجدران لنصل إلى الحمام ونعود إلى فراشنا حتى نستأنف المشوار مرة أخرى بعد دقائق قليلة.

شعور فظيع رهيب ونحن غرباء لا نعرف فى المدينة أحداً. إضطررنا أن نستدعى الطبيب فى الساعة

الرابعة صباحا وجاء مسرعا بالإسعافات اللازمة وقال إننا نعانى من تسمم خطير وعلينا أن نلزم الفراش لمدة ثلاثة أيام على الأقل حتى نستعيد قوانا.

لا يمكن وصف ما شعرنا به ونحن فى هذه الحجرة الغريبة فى هذا البلد الغريب ومعنا طفلنا الذى يلزمه رعاية خاصة ومستمرة ونحن لا نستطيع رفع رأسنا من على الوسادة من الإعياء والضعف الشديد.

وكأن تامرا شعر بما فينا وفهم خطورة الموقف فالتزم بهدوء عجيب لم يسبق له مثيل، ومكث يلعب بما كنت أحضرته معنا من لعب ليلعب به فترة عبورنا المحيط، من غير أن يطلب منا الطلبات التى اعتاد أن يطلبها لاجتذاب إنتباهنا.

كانت وجباته تحضر إلى الغرفة ويأكل بدون أن نحثه على ذلك - يذهب لغسل يديه أو يقضى حاجته بدون طلب مساعدة منا وكأنه يعلم أننا غير قادرين على ذلك - يترك اللعب من حين إلى حين ليأتى لكل منا

ويبتسم لنا ويأخذ حصته من التشجيع والقبلات ثم يعود مرة أخرى إلى العابه لأن الحجرة طبعا كانت خاوية من أشياء تسترعى إنتباهه، والتلفزيون كان غير مجد لأن الإرسال كان محدد المدة فى ذلك الوقت والبرامج غالبا مليئة بالحوار، حتى عند ميعاد نومه يدخل إلى الفراش بدون إحتجاج كالمعتاد. فى لحظات وعيى وأنا أعانى من حرارة وصلت إلى ٤٠ درجة أنظر إلى تامر وأحمد الله «كيف هذا الهدوء وهو دائم الحركة؟».

والأغرب والأعجب أنه استمر على هذا الهدوء وهذا التعاون التام معنا طول فترة الثلاثة أيام وهو محبوس فى هذه الغرفة الصغيرة. أكيد أنه شعر وأكيد أنه فهم.

وفى يوم سفرنا المحدد تركنا الفراش، عثمان وأنا، شاحبى اللون وخطواتنا غير مستقرة من ضعفنا الشديد لنرتدى ملابسنا ونعد حقائبنا، وذهبنا إلى المطار ومعنا طفلنا لنستأنف رحلتنا إلى مقرنا الجديد.

* * *

حياتنا فى هولندا

فور وصولنا إلى هولندا ذهبت أنا وتامر إلى لندن وبدأت رحلة دق الأبواب على المدارس والمراكز، وكانت رحلة قاسية ومؤلمة من كثرة ما رأيت أعدادا من المعاقين... كانت هناك مراكز دخلتها ومن اللحظة الأولى كنت أقول لنفسى: «لا يمكن أن أترك ابنى هنا» ومع ذلك أدخلها وأتفقدها وأسمع كلمة الاعتذار بعدم القبول. كنت أقيم مع تامر فى فندق فى لندن، أسافر فى الصباح فى رحلة البحث وأعود فى المساء... أعود محطمة من كثرة الرفض وما رأيته. وفى يوم سافرت إلى بريستول Bristol ودخلت أحد المدارس.. كان الأولاد يلعبون فى فنائها.. وجوههم مبتسمة والمدرسون مبتسمون أيضا... وشعرت بالحب والسعادة من حولى. وقلت لنفسى «يا رب... يا رب يكون قدر تامر فى هذا المكان!».

ثم قابلت رئيسة المدرسة وكانت المؤسسة لها وأيضا مؤسسة لحركة واسعة تدافع عن حقوق المعاق ذهنيا، سيدة وقورة على وجهها علامات الطيبة والسكينة. تبادلنا الحديث وبدأت تكلمنى من واقع ملف تامر الذى كنت أرسلته لها من قبل وقلت لها: «أنا أعرف أنكم رفضتم طلبى.. ولكنى أتيت بنفسى لتتعرفوا علىّ وعلى ابنى شخصيا. وذكرت لها أنى شعرت بالسعادة تنعكس على وجوه الأطفال حين مررت بالفناء وتمنيت أن يكون لتامر نصيب هنا معهم. تبادلنا الحديث لفترة ثم قالت لى وهى مبتسمة «عندى بشرى سعيدة لك... أمنيتك تحققت... سنقبل تامر فى المدرسة من أول السنة الدراسية».

وأخذتنى لزيارة المركز وهى تقول: «إنك كنت فى أمريكا وتعلمين بمستواهم العالى، نحن متواضعون بالنسبة لهم ونعمل فى ظروف صعبة مادياً وسوف تجدين الفارق الكبير بيننا. ولكن عندنا يوجد الحب... ونعمل بحب... وأولادنا يحتاجون إلى الرعاية والدفء ولا يدركون الماديات».

تركت المدرسه وأنا أكاد أطير من شدة الفرح، بالفعل لم أشعر بالأرض تحت قدمى لأنى وجدت أخيراً المكان الذى أثق أن أترك فيه ابنى.

وكانت هذه هى المرة الثانية التى أشعر فيها بهذا الإحساس... أنى أطير ولا أسير... المرة الأولى كانت سنة ١٩٥٤ عندما وجدت أول عمل لى بعد الإنفصال عن زوجى الأول.

والآن حين يأتى الأهالى عندنا فى مدرسة جمعية الحق فى الحياة وأسمعهم يقولون: «إننا هنا نحس بالدفء والحب» أصدقهم وأحس بالسعادة والرضا لأننا نعطى هذا الإنطباع بالذات الذى شعرت به عندما دخلت مدرسة تامر فى انجلترا منذ ستة وعشرين عاما.

* * *

عندما وصلنا هولندا كان عمر تامر خمس سنوات وثمانى شهور. كانت علينا أعباء إجتماعية شديدة من زيارات وتلبية دعوات بسبب مركز عثمان فى السفارة،

وكان محور الشدة هذا التساؤل «مع من أترك تامر حين أقوم بهذه الواجبات؟»... وتامر مرهق بسبب نشاطه المفرط... ولكن الله كان معنا... وأوجد لى تلك الصديقة «عفاف» فى حياتى.

كانت حرم السكرتير الأول «يحيى قابل» وأبدت على الفور إهتماما شديدا بتامر. كانت تطلب بإصرار أن تصطحبه إلى منزلها معها ومع أولادها لا تفرغ أنا لإلتزاماتى الاجتماعية.

فى بادئ الأمر كنت أعتذر بلباقة إعتقادا منى أنها مجرد مجاملة منها، إلا أنها كانت لا تمل من الإصرار فى طلبها هذا. وأخيرا أدركت أنها فعلا صادقة فى إهتمامها بتامر... وتعلق تامر بها جدا وهى تعلقت به وكان يشعر بالسعادة بين أفراد أسرتها.

هذه الزميلة العزيزة تحملت عنى عبئا كبيراً، وحينما كنت أرسل تامرا إليها كانت تعطينى الإنطباع أننى أنا التى أقدم لها خدمة وليس العكس.

هذه الصداقة مازالت قائمة بيننا حتى كتابة هذه السطور وتامر حين يغضب منى يهددنى باستمرار « I Tell Faf »، حأقول لعفاف. الواقع أنها ساعدتنى بكل طاقتها وبعد أن دخل تامر المدرسة كانت تساعدنى أيضا فى أجازاته العديدة لأن النظام المدرسى هناك كان يحتم على الطفل أن يزور أسرته أربع مرات فى السنة ولمدة شهر كل مرة...

أريد أن أشير هنا أننى أدركت بعد ذلك أن الأهل الذين لديهم طفل معاق يقعون فى خطأ كبير بدون أن يدروا.. وهذا الخطأ يتمثل فى رفضهم أى عرض من جانب الأهل أو الأصدقاء أو الجيران بأن يأخذوا منهم ابنهم لفترة فى نزهة معهم أو لقضاء بعض الوقت فى منزلهم أو... أو.... يرفض الأبوان مثل هذه العروض ولا يتصورون أنه يوجد إنسان يستطيع أن يفهم ابنهم غيرهم!! ويتصورون أيضا أن الآخرين لن يكون لديهم الصبر المطلوب معه وبناء على ذلك لن يستطيعوا ان يتعاملوا معه!!! كلنا بلا إستثناء نرفض هذه المساعدة

خوفا على ابننا وخوفا أكثر على الآخرين، وفى هذا خطأ كبير لأن الطرف الآخر يريد أن يشعر بسعادة لمساعدتنا، وثانيا أنها أنانية منا أن نحجب عن ابننا المعاق فرصة خوض التجارب مع الآخرين. إننا نحرمه من إكتساب خبرة فى محيط آخر كان من الممكن أن يكتسبها عن طريق هذه الزيارة أو النزهة أو مشوار، إذ من الجائز أن يتعلقوا به وتحدث بينهم علاقة صداقة ومحبة.

إن وجود الإبن مع أسرة صديقة لفترة ما دون وجود الأب أو الأم تخلق ألفة ومحبة بينهما وتجعل الإبن يشعر بأنه حر ومنطلق وليس تابعا دائما لأمه وأبيه أو أخته، يحس أن له علاقات منفردة وأصدقاء ويحس بذاته معهم إذ لا يجب أن نغفل أنه فى حالة وجود الأم أو الأب فإنهما يحجبان حضوره هو نفسه وتجد المضيفة تسألهما مثلا «هل محمد يحب الشاى باللبن أم سادة؟» بدلا من أن توجه له السؤال مباشرة.

إن تامـرا حين يكون منفـردا مع أصـدقـائي فـإنهم يروون لى بعد ذلك كـيف أنه عـبـر لهم عن أشـيـاء لم يروها لى فى حياته من قبل، ربما لأنه مقيم معى وأفهم مـا يريد قبل أن ينطق به أو من الجائز أنه أيضـا لا يبذل جـهدا كـافيا معى لأنه جزء من حيـاتى وأعلم عنه كل شئ.

وهناك وجهة نظر أخرى فى ترك الابن المعاق مع الآخـرين لفـتـرات مـحـدودة وهى أن الأم تأخـذ فـرصـة للراحة مهمة جدا لإسترداد نشاطها وحيويتها، وتستطيع فى هذه المدة أن تمارس نشــاطـا أو تذهب إلى مكان محبب لها فتستقبل ابنها بعد ذلك باشتياق ورضـى. أما الآخـرون فـهم أيضـا يشـعرون بالامـتنان لأنهم أسـعدوا إنسانا فى أشد الحاجة إلى صديق.

أرجع هنا لما كنت أرويه، بأن تامـرا كـان يزورنا أربع مـرات فى السنة لأن نظام المدرسـة يتطلب هذا حـتـى لا تنقطـع الصلة والروابط الأسـريـة بين الطفل

وأهله. برغم فرحتنا ولهفتنا على قدوم تامر إلا أن مخاطر الطريق من مدرسته إلينا كانت مصدر قلق وخوف مستمر.. مرة نحسب حساب سوء الجو ومرة نحسب حساب الإضرابات الكثيرة لعمال المطار.. ومرة كنا نتساءل ترى هل سيجرى تامر من المضيفة؟ أم سيتوه فى الزحام؟ وكانت «المرافقة» تقوم بتوصيل تامر إلى المطار وتسليمه إلى مضيفة المطار التى بدورها تسلمه لمضيفة الطائرة إلى أن تأتى به إلى مطار امستردام ونكون نحن فى انتظاره، وهكذا يكون مشوار العودة بعد مرور الأربع أسابيع ونتسائل من جديد... هل سيفضحنا تامر من كثرة البكاء والصراخ فى المطار حين يرحل؟.... وماذا سيقول الركاب علىَّ وعلى والده ونحن نسلمه للمضيفة؟ سيقولون «أعوذ بالله من الأهل القساة الذين يجبرون طفلهم على البعاد وهو هكذا قليل الحيلة، لابد أنهما يريدان التخلص منه»... والناس من عادتها أن تحكم على ظاهر الأشياء فقط، وهذا درس عظيم تعلمته من خبرتى فى الحياة مع ابنى، بألا أحكم

على ظاهر الأشياء وألا أبدى رأيا لأنى لا أعرف حقيقة ما وراء الصورة التى أرى سطحها فقط.

إلا أن الله كان معنا دائما ففى قمة هذا القلق وهذه الحيرة يفتح أمامنا بابا من واسع كرمه ورعايته لنا. و«الرفيقة» التى ترافق تامر من المدرسة للمطار لها قصة عجيبة:

ففى أثناء زياراتى التقليدية للتعارف، عندما وصلنا هولندا، زرت قرينة أحد السفراء وكنت أحكى لها عن تامر كطفل معاق ومشكلتى فى إصطحابه فى كل مرة يأتى فيها إلينا أو يعود فيها إلى المدرسة... وأننى علمت أنه فى لندن توجد مكاتب متخصصة عملها الأساسى إستلام الطلاب والتلاميذ من محطات القطارات والمطارات لتوصيلهم إلى مدارسهم الداخلية (لأنه كان السائد فى انجلترا فى ذلك الوقت أن الأسر القادرة كانت تفضل أن تضع أولادها وهم أسوياء فى مدارس داخلية لزيادة خلق جو مدرسى علمى فيه الإلتزام

والتـــحـــصــيل) ... وأنني أريد أن أذهب إلى أحـــد هذه المكاتب واسـمـهـا Universal Auntys «الخـالات العـالميـة» لاتفق معها بخصوص تامر، فإذا بها تحكى لى وتقول «من سنة تقريبا كنت فى انجلترا فى قطار قاصدة مكانا ما ولفت نظرى وجود سيدة لطيفة جدا تتحاكى مع طفل صغير وكنت أظنه ابنها فقالت لى إنها صاحبة مكتب خـاص لتـوصـيل الأطـفـال إلى مـدارسـهم. الواقع أنـنى أعجبت من أسلوبها الودود مع الطفل لدرجة أننى أخذت عنوانها وإسمها وأنا ليس لى أطفال، ولن يكون لى، حتى أحتاج مكتب توصيل، ولكن شيئا ما دفعنى إلى أن آخذ عنوانها». ووعدتنى أن تبحث فى أوراقها الخاصة عن عنوان هذه السـيـدة، وبالفـعل فى اليـوم التـالى كـانت تتصل بى وتعطينى العنوان والاسم "Mrs Margaret Morris" «مسز موريس».

ولقد ذهبت إليها فعلا وتعرفت بها وإلى يومنا هذا وهذه السيدة ترعى تامر فى كل سفره. وهو يعزها جدا وفى أحيان يبيت عندها عندما يكون الجو ملبدا بالغيوم

عند وصوله إلى لندن. وهذه السيدة لم تكن تتعامل أو توصل معاقين من قبل لكنها تعاطفت معى ومع مشكلتى وبمرور الوقت تعودت على تامر وصارت بينهما علاقة جميلة وقوية، وهذا عطاء من الله كبير... وحتى يومنا هذا تسافر لتأخذه من بريستول بنفسها وتعود به إلى لندن ثم يركب الطائرة إلى مصر بعد أن تكون قد عملت كل الترتيبات ليصل إلينا سالما، ونستقبله أنا ووالده مطمئنين لكل خطواتها. وهكذا... مع كل سفرة له خطابات وترتيبات طويلة... وكان من كرم الله علينا أن السيدة حرم السفير إحتفظت بالعنوان رغم أنه ليس لها أولاد وكأنها أداة جعلها الله تسهل لنا الطريق.

وأعود بقصتى لوقت وصول تامر إلى مدرسته فى بريستول لأول مرة . أعدت له المدرسة أن يعيش السنة الأولى فى بيت صغير مع خمسة أطفال معاقة وأم حنونة، أحد هؤلاء الأطفال ابن لها فعلا. كانت لها طريقة مميزة ومرحة مع من هم فى رعايتها ،فى الصباح كانت تصحبهم إلى المدرسة وبعد الظهيرة تعود

بهم إلى بيتها .... كأنهم خمسة أخوة من أم واحدة، وكان ابنها معاقاً أيضا إلا أنة كان يكبرهم سنا فكان يعاونها فى رعاية الصغار، فشعرت بالطمأنينة والأمان عندما غادرت المكان .

كتبت لى هذة السيدة بعد ذلك تقول أن تامر كان يبكى كثيراعندما يدخل فراشة فى المساء لشعورة بالوحدة، ولقد تغلبت على هذا الشعور بأن أحضرت له دمية طرية على شكل قرد لطيف الوجه ويرتدى بدلة حمراء كان ملكا لإبنها عندما كان صغيرا . وأكدت لتامر أن هذا القرد سيكون صاحبه الحميم ورفيقه الدائم فى الفراش.

إستعجبت لأسلوبها هذا واستعجبت أكثر أن فكرتها نجحت فى تخفيف شعور تامر بالوحدة والغربة. «ميكى» وهذا ما سماه تامر، مكث معه طيلة المدة التى قضاها فى المدرسة والآن (بعد خمس وعشرين سنة) يشغل مكانا مميزا فى حجرته فى بيتنا وكثيرا ما يحضره تامر ليجالسه.

بدأوا فى المدرسة إعطائى نصائح عن كيفية معاملة تامر عندما يعود إلينا فى هولندا فى الأجازة التى سيقضيها معنا وعلى أن نكون ملتزمين بمعنى ،لا تهدموا ما قد بنيناه فى المدرسة، إنه الآن مثلا يعرف كيف يخلع ملابسه وكيف يرتديها ولابد أن تحافظوا على درجة إعتماده على نفسه بألا تقدموا له المساعدة مادام قادراً.

كان هناك طفل أسيوى مع تامر فى المدرسة إلا أن الإدارة إضطرت أن تعيده إلى أهله بعد أن أمضى عاما واحداً معهم لأنه تبين لهم أن الأسرة لا تحافظ على الطريقة التى يعاملون بها الطفل فى المدرسة. إنهم فى البيت يبالغون فى تدليله ويتركونه يفعل ما يشاء يطعمونه بأيديهم ويلبسونه بأنفسهم فيعود الطفل إلى المدرسة كما كان من قبل ويبدؤون معه مرة أخرى من نقطة الصفر وكأنهم لم يبذلوا معه أى جهد. أبلغوا أهله بما معناه أنه من الأنسب لهذا الطفل أن يكبر فى بيئته حتى لا يتخبط فى حياته.

ولكننا أدركنا أهميـة هذه النقطة وإقتنعنا بها حـتى ينفع تامر نفسه فى المستقبل... فلابد فعلا من أن يتعلم كيف يـخدم نفسه لأنه لن يكتسب هذه المعرفة بالطبيعة والتلقائية كأى طفل آخر عادى، يدلل فى صغره وحين يكبر يتعلم ببساطة كيف يلبس وكيف يأكل... فى حالة الطفل المتخلف لابد أن يتدرب عليها وهو صغير لأنها ضرورة لحياته المستقبلية وإذا ما كبر على عدم التعود على خدمة نفسه على الأقل فسيكون من العسير عليه أن يتعلم بعد ذلك فى مراحل أكبر سنا.

* * *

تامر كان شقيا ولئيما جدا، هو صحيح يعانى من تخلف وتخلفه شديد إلى حد ما، لكنه مثل كل المعاقين لديهم ذكاء ومكر فى أشياء كثيرة.... وهذا ما يجعل الأهالى يقولون لنا فى جمعية الحق فى الحياة «إبنى نبيه جدا، إبنى ينقصه الكلام فقط» وهم فعلا ليسوا أغبياء ومن الجائز أن يكون الطفل فعلا ذكيا ولماحا ومع هذا

يكون متخلفا جدا فى أشياء أخرى كثيرة عن الطفل الذى له نفس عمره.

كان تامر حين يأتى موعد عودته إلى المدرسة ويرانى أبدأ فى إعداد حقيبته يمارس عليّ ببراعة ضغطا نفسيا حتى لا يسافر. كان فى هذا الوقت قد بدأ ينطق بكلمات تعلمها عن طريق جلسات التخاطب وبذلك أصبح ينطق بكلمات فقط وليس جملا... كلمات مثل التلغراف ولكن من كلماته تلك نستطيع أن نفهم مقصده، فكان يقول لى «Mamma School no» «ماما مدرسة لأ» أو «Mama go no» «ماما أذهب لأ» ثم يضيف «Please Please» «من فضلك... من فضلك» ثم «Home nice» «البيت حلو». وأنا أسمع كلماته هذه كان قلبى ينفطر من بين ضلوعى ومع هذا أضبط إنفعالاتى حتى لا يظهر على وجهى أى تأثر وبالعكس أقول له: «إيه الكلام ده يا تامر.. إنت مش عايز تكبر وتكون زى بابا... كل الأطفال يذهبون للمدرسة... لابد أن تذهب للمدرسة حتى تكبر وتكون مثل بابا...» وأبذل جهدا

خارقا مع نفسى لأكبح جماح عواطفى حتى لا يتمادى فى إستدرار عطفى... وفى الصباح آخذه أنا وعثمان قاصدين المطار... طبعا كان الألم يعتصرنا مع الهواجس والخوف ونتسائل فى صمت ترى هل سيرضى بركوب الطائرة مع المضيفة؟ هل سيبكى ويصرخ؟ هل سيلقى بنفسه على الأرض؟ هل وهل وهل... الخ.

إلا أن الله كان فى كل مرة بجوارنا فنجد أحد الركاب يتضاحك معه أو المضيفة تشاغله ونجده يدخل الطائرة راضيا.... بالإضافة إلى أنه كان لماحاً كأغلب الأطفال المعاقة فقد فهم منذ البداية أننا لن نوافق على مطلبه فى عدم العودة إلى المدرسة فكان ما يفعله هو نوع من المقاومة أو التدلل فقط. وبالتكرار والتعود بدأ يتغير سلوكه تدريجيا ويقل لديه حدة الشعور بالإحباط لأنه تعلم كيف يقاوم الرغبات التى لا يستطيع تحقيقها أو الوصول إليها وتعلم كيف يتعامل مع إخوانه ويجد لنفسه طرقا ووسائل للتعبير والإتصال بالناس.

كانت الناحية المادية لا تسمح لى بأن أسافر معه لتوصيله إلى المدرسة كل مرة، ولكنى حين كنت أذهب معه بين الحين والآخر قالوا لى كلاما أخذته فى الاعتبار وأحب أن أقوله هنا... وهو مبدأ من المبادئ المهمة جدا التى يجب أن يكون أساس العلاقة بينى وبين ابنى... هذا المبدأ هو ألا أشفق عليه أثناء تعاملى معه لأن أى رد فعل لى أو حركة منى فيها شفقة عليه معناها أننى أعوقه أكثر... أعوقه أكثر على تعويقه الخلقى... إن ما يلزمه منى هو حب بناء بمعنى تفهم لحالته ومساعدته وهذا يأتى عن طريق محاسبته - فى حدود المعقول - مثل أى طفل عادى... وبهذا الأسلوب أكون قد عملت على بنائه وبناء شخصيته.... واليوم الذى أعامله بشفقة وأقول مثلا «مسكين أو حرام إنه لا يفهم ولا يعرف».... الخ... حين أردد مثل هذه العبارات فأنى أقوم بهدم شخصيته وأعوق تقدمه... من هذا المنطلق كنت أعامله وكنت أغضب إذا وجدت من حولى يقول عنه نفس العبارات المشفقة. لماذا كلمة

مـسكين؟ الواقع أن ابنى عنده ظروف خـاصـة وهذا لا يمنع من مطالبتـه بقدر معين من الإلتزام ومـحاسبتـه على سلوكه. هناك مثلا أشياء لا يمكن أن أطالبه بعملها لأنه لن يستطيع القيام بها، لكن لا مانع من المحاولة معه دون الضغط عليه زيادة عن اللازم.

أتذكر مرة، كنت أصحبه إلى بريستول وطوال رحلتنا بالقطار لم يمل من تكرار العبارات التى كانت ترهقنى مثل «من فضلك ماما مدرسة لأ» فوصلت منهارة من التأثر. ومما أدهشنى أن فور وصولنا إلى المدرسة قالت له الأم التى ترعاه «تامر خذ حقيبتك وأصعد إلى حجرتك ورتب أشياءك» فوجدته يتناول حقيبته بلا تردد واعتدل فى وقفته وبابتسامة عريضة أجاب «حاضر يا أفندم» وصعد أمامى ولم يلتفت إلىّ بعد ذلك... إنشغل مع زملائه يطلعهم على ما أحضره معه من هولندا وهم يفعلون نفس الشئ معه، فقلت للأم: «لقد مزق قلبى طوال الطريق رافضاً العودة إلى هنا»، فردت علىّ ببساطة شديدة: «حينما تكونين فى أجازة وعائدة

إلى عـملك لابد أن شـعـورك سـيكون مـثله تمامـا. أنا شخصيا كان لدى نفس الإحساس حين وصلت أمام باب المدرسـة، لم أجد فى نفسى الرغبة على الدخـول لأنى أعـرف أن هنا سـيبدأ العمل.. إحـمدى الله أنه لا يريد العودة لأن هذا يعنى أنه يحبكم ويشعر بحبكم له... لقد رأيت أولادا تتلهف على المجئ إلى المدرسـة بسـبب إحساسهم بضيق الأهل بهم، والمدرسة بالنسبة لهم هى الجنة. فلا تحزنى على أمر لا يستحق».... ليتنى كنت سمعت هذه التعليقات من سنين مضت لكانت هونت علىّ فراق تامر!!

* * *

فى السنوات التى أمضيناها فى هولندا كـان تامر يأتى لنا فى أجازاته كما قلت. كل من حولنا طبعا كانوا يعرفون أن لنا طفلا متخلفا وكنت أنا وعثمان نأخذه معنا فى كل مكان نذهب إليـه إذا أمكن، ونتكلم ونشـرح للموجودين حولنا أننا باصطحابنا له إنما نعطيه فرصة

للتكيف مع المجتمع وتكيف المجتمع معه، والشئ الجميل أن أغلب من حولنا قد التقط الخيط منا وتكاتف معنا لإعطائه هذه الفرصة، كنت دائما أشرح لهم وأعطيهم التوعية فى كيفية معاملته، بلطف لكن بدون تدليل، وحين نكون فى زيارة ما وأطلب منهم مثلا ألا يكثروا من إعطائه الحلوى كانوا يتجاوبون معى لأنى كنت حازمة فى طلبى. وهنا أحب أن ألفت نظر الأهالى بألا يشكوا من المجتمع على أساس أن الناس قساة أو غير مرحبين بطفلهم، الأمر يكمن فى والدى الطفل، فعلى الأسرة أن توعى بلباقة من حولها لأن الناس لا يعلمون شيئا عن طبيعة المعوق. الإنسان بطبيعته يخشى الشئ الذى يجهله ويبتعد عنه أو يتجاهله.. فى حياتى مع تامر شعرت بالتجاوب مع من حولى ولكن أحيانا يقابل المرء بعض الأفراد الذين يتصرفون بطريقة جارحة وهذا لا يعنى أن كل المجتمع هكذا.

بالرغم من وجودنا فى هذا الجو المتعاطف لم يفارقنا يوما القلق وخاصة حين يقترب ميعاد حركة

التنقلات فى الوزارة، لأننا لو رجعنا إلى مصر فمن أين سنأتى بالمال لندفع مصاريف تامر؟ هل سنعود به إلى مصر وننتزعه من المدرسة؟ وفى هذه الحالة سيضيع كل ما تعلمه وسينهار كل ما بنيناه لأن هذا المناخ التربوى الخاص كان غير متوفر فى مصر فى ذلك الوقت.

المسئولون فى المدرسة كانوا يدركون قلقى تماما ويسألوننى: «لماذا لا تذهبين إلى مصر وتنشئين جمعية ومدرسة لابنك؟ هذا ما جرى فى بلادنا.... أمهات كافحت وساهمت فى بناء مراكز لأطفالهم وخدمة الآخرين». وقتها كنت أقول لنفسى....« أنا ... وهل أعرف أى شئ عن الإعاقة.. أنشئ مدرسة وكيف؟ ومن أين؟ كان إحساسى وكأنهم يقولون لى... إعملى سفينة فضاء لتذهبى بها إلى القمر». ولم أكن أدرى إنى فى يوم ما سيكون هذا فى إستطاعتى.

لقد أقمنا ست سنوات فى هولندا وإقترب ميعاد خروج عثمان على المعاش. ولم يكن لدينا من

المدخرات إلا القليل، وقد كنا وضعنا من قبل، هذا المبلغ البسيط فى شركة توظيف أموال فى سويسرا مثل الشركات التى كانت موجودة منذ قريب فى مصر.

كانت هذه الشركة فى الستينيات معروفة بأرباحها العالية جدا... المبلغ كان يتضاعف فعلا. وضعنا هذا المبلغ الضئيل وقلنا فى وقتها «ربنا يطرح فيه البركة حتى نستطيع أن نفعل به شيئا لتامر».

إلا أنه فى يوم جاءنا خطاب من الوزارة به قائمة بأسماء بعض الشركات والمؤسسات التى يجب أن نتجنب التعامل معها، وكان من ضمنها تلك الشركة التى وضعنا فيها مدخراتنا لصالح تامر، فكرنا فى الأمر ولكن لم نتخذ أى خطوة إيجابية بسبب زحمة الالتزامات اليومية. وبعد بضعة شهور وصل إلينا خطاب آخر بنفس المعنى وهو تحذير للمصريين من التعامل مع هذه الهيئات بشركاتها المختلفة. ولما كان هذا ثانى خطاب يصلنا، فلقد شعرنا بحرج موقفنا، ولم يكن أمامنا إلا سحب هذا المبلغ البسيط ونحن فى غاية الأسف.

والذى حدث بعد ذلك كان فوق الخيال. لقد أفلست هذه الشركة الكبيرة بعد مرور خمسة أشهر من سحب أموالنا وكانت ضجة عالمية حينذاك... وحمانا الله مرة أخرى. هذا المبلغ هو ما أعطيناه لرجل هولندى كان صديقا لنا وكان من كبار رجال المال. أراد هو أن يقدم خدمة لنا وإستثمار هذا المال بمعرفته، وكانت هذه الخدمة ليست لنا قدر ما هى لتامر.. وظل هذا الاستثمار سندنا إلى يومنا هذا.

كان تقدم تامر البطيئ يشعر عثمانا أحيانا بالإحباط. وكلما يأتى إلينا فى الأجازة يسألني «أنت شايفة أي تحسن؟؟» ... نعم ... كان هناك تغيير طفيف فى سلوكه لكن عثمان لم يكن يقدره مثلى ولم يكن مقتنعا أن الطفل المعاق ذهنياً يتقدم بسرعة السلحفاة.

وجاء موعد عودتنا إلى مصر.

كان تامر قد بلغ من العمر إحدى عشر سنة إلا أن عقليته كانت كأنها لطفل عمره أربع أو خمس سنوات...

وانفجرت أكبر مشكلة بينى وبين زوجى فى حياتنا معاً. لقد كانت رغبتى أن يظل تامر فى مدرسته وعثمان رافض تماما هذه الفكرة، على أساس أن المسافة بيننا وبينه ستكون ست ساعات طيران بدلا من ساعة واحدة، والمعاناة الشديدة التى نتكبدها اليوم من أجل ساعة واحدة كيف سنتحملها والمسافة ست ساعات؟.... كيف نتركه ونحن لانعلم ظروفنا؟.

وكثير ما كان يردد.. «أنا موش شايف أن التعليم ده كله عامل فرق يذكر» وهذا يعنى بإختصار أن بقاءه فى المدرسة لايستحق هذا القلق وهذا الإنفاق، والأكيد أن هذه المرارة التى كان يشعر بها وأثر المناقشات التى كانت تدور بيننا قد شعر بها المحيطون به والأكيد أيضاً أنه صرح لهم عن سبب ضيقه وأنه يرى أن تامر يجب أن يعود إلى مصر معنا، ليكون فى «حضن العيلة» و«حنان العيلة» وليس وحيداً ولابعيدا.

ووجدت الأصدقاء يأتون لزيارتنا كالعادة ويبدأون فى مناقشة الموضوع ويدخلون لى من مداخل شتى كأن

الكلام جاء بالصدفة البحتة. ولكنى فى النهاية تنبهت إلى أن الأمــر أصــبح فــيــه تكتل منظم لإقناعى بأن الأفضل أن يعود تامر معنا. ووقع خلاف كالبركان بينى وبين عثمان، ولكنى لم أشعر للحظة واحدة أننى متصلبة فى الرأى أو أننى أعـانده لمجـرد العناد.. كـان كل هدفى أن أعطى لتامر فرصة أطول ما أمكن.... رغم ضراوة التضحيات.

والحـقيـقـة أن عـثـمـان كـمـا قلت من قبل، شـديد الحساسية والفهم لى وهو يعرفنى ربما أكثر مما أعرف أنا نفسى، ولهذا شعر بتصميمى الأكيد والذى لا رجعة فيه وقد حاول تقليب الأمـر معى على كل الوجـوه فلم أتنازل عن رأيى... فلم يشــأ أن يخلق لنا مــزيدا من المعاناة أو مزيدا من المرارة فتقبل رأيى وكان هذا أعنف خلاف حدث بيننا.

* * *

كانت أيامنا فى هولندا جميلة فلقد لحقت بنا «مايرا» الصغرى وذهبت «نيفين» تستكمل دراستـها فى باريس

وتأتينا بإنتظام فى الأجـازات، وعلاقـتـهـما بتـامر كلها دفـء وحنان اللهم إلا من بعض الخــلافــات مـــعى بخصوص حزمى معه لأنهما كانتا ضعيفتين فى مواقف كثيرة وتميلان إلى تدليله، ومن جهة أخرى، نفس هذا الحزم هو ما جعلهم يتقبلون منى كثيرا من التوجيهات الخاصة بهما لأننا كأى أسرة كانت لنا مشاكلنا الخاصة بتربية أولادنا...

كما ذكرت، أيامنا كانت سعيدة فى هولندا، نخرج بالعربة نزور البلاد من حولنا ونستمتع بجمال الطبيعة وكان تامر يجلس خلفنا فى العربة يتفرج ويتسلى وكنت دائما أنبهه إلى كل جديد يراه حتى تزداد معلوماته لأنهم نبهونى أن الطفل المتخلف مثل الكومبيوتر يختزن كل ما يراه ويسمعه ولقد لمست هذه الحقيقة بنفسى حين أجد تامر فى مناسبات معينة يظهر معلومات كنت أحسبه لم يستوعبها فى وقتها.

لقد عشنا حياة تقليدية فى هولندا لأنهم يتمسكون بالبروتوكول الانجليزى بدقة هناك، وأذكر أن كانت لهم

عادة لطيفة جدا ولو أنها فى البداية أدهشتنا وخاصة أننا قد أتينا من بلد غير تقليدى «بنما» وكان الزى فيها بسيطا والحفلات «بوفيه مفتوح» ويبدأ بعد العاشرة وينتهى بعد الثانية صباحا تقريبا. أما فى هولندا فكان الأمر يختلف تماما لأن أى حفل رسمى أو أى نشاط إجتماعى لابد أن يتوقف فى تمام الحادية عشر مساء. فكان علىّ أن أبدأ فى تنبيه عثمان إذا ما كان هو ضيف شرف الحفل فى حوالى الحادية عشرة إلا الربع حتى يبدأ فى إنهاء الموضوعات التى يتحدث فيها ونستعد للإنصراف حتى يتسنى لباقى الحاضرين الإنصراف كذلك... كان هذا شيئا صعبا علينا فى بادئ الأمر وخاصة أن السفارات الصديقة كانت تستقبلنا واحدة بعد الآخر لترحب بنا. وقد نبهوا علينا بألا نتأخر عن الحادية عشرة لأن ذلك يعتبر تصرفا غير لائق ومنتقدا.

والغريب أن الناس هناك كأن فى عقولهم ساعة موقوتة، ما أن تأتى الساعة الحادية عشرة إلا الثلث إلا وتجد كل الموضوعات تُقفل فى انتظار انصراف أكبر

الضيوف أولا وعند تمام الحادية عشرة لا تجد مخلوقا. نحن أنفسنا بعد فترة أصبحنا مثلهم. هذه عادة مريحة جدا لأنه عندما يصل الإنسان إلى بيته بعد ذلك يستطيع أن يأخذ راحته وبذلك يبدأ اليوم التالى وهو فى كامل نشاطه.

«لاهاى» العاصمة بلدة جميلة، شديدة النظافة، شديدة الهدوء. وفى البداية كان الهدوء مملا بالنسبة لنا لأننا متعودون على النشاط وعلى الحركة طول اليوم أما هناك بعد السادسة مساء لا تجد إنسانا فى أى محل أو أى شارع.... ولو بعدت عن قلب أمستردام تجد الهدوء التام كأن البلد هجرها أهلها... لا توجد حياة بعد السادسة ولا حتى محال لبيع الطعام، لكن الناس لهم حياة عائلية فى داخل بيوتهم التى تتميز بالواجهة الزجاجية.

لا أنسى الأيام السعيدة التى كنت أقضيها حين تأتى أمى لزيارتنا أو تأتى ليلى شقيقتى وزوجها فاروق الذى كان شديد التعلق بتامر، و«نيفين» و«على» أولادهم الذين

كانوا يلعبون مع تامر ويملؤون البيت فرحا، خصوصا «على» الذى كان يكبر تامر بسنتين ويصطحبه معه فى كل مكان ويلتزم بحمايته ورعايته دائما، وأيضا لا أنسى مرارة الشعور بالفراق حين يجيئ موعد رجوعهم إلى مصر.

* * *

قبل أن نعود إلى القاهرة كان علىّ مهمة حساسة جدا ولابد منها وهى أننى أذهب إلى مدرسة تامر وأرجو المسئولين وأشرح لهم ضرورة حصولى على تخفيض كبير فى مصاريف المدرسة فعودتنا إلى وطننا لن تمكنا من دفع ما كنا ندفعه أثناء عملنا فى الخارج لأن فى مصر سينطبق علينا الكادر الوظيفى المعمول به هناك، وقد تشفع لى أنه كانت بيننا وبين المدرسة علاقة حسنة جدا لدرجة أنهم كانوا يقولون لنا «ليت كل الأهالى مثلكم ملتزمون ومقدرون ومتفاهمون». طلبوا منا أوراقا رسمية عن دخل عثمان فإستخرجها من الخارجية المصرية

ومن مصلحة الضرائب وكان شيئا مضحكا حقا بمقارنته بمستوى المعيشة فى انجلترا. ومرة أخرى وقف الله بجانبنا ورغم أن نظام المدرسة ينص على عدم تخفيض المصاريف إلا أنهم قدموا لنا إستثناء من أجل تامر واستطعنا أن نكمل المشوار وأخذ الله بيدنا فى كل خطوة خطوناها.

ومن رحمة الله علىّ أن الصورة الكاملة لمشكلة تامر لم تكن واضحة فى ذهنى... كنت أظن أنه لو ظل فى مدرسته حتى يصل من العمر إلى السابعة عشر يكون قد إنتهى من الدراسة ومهما كانت التضحيات فإن هذا الطريق له نهاية، وإذا كان تامر له من العمر الآن احدى عشرة سنة إذن يبقى أمامى ست سنوات أخرى... ولم أكن أدرى أن المشوار طويل... طويل مدى العمر كله... كنت أتصور أنه بعد هذه السنوات الست القادمة سيعود ونعيش فى ثبات ونبات معا... لكن من رحمة ربنا بى أننى لم أكن أعرف وقتها.

* * *

عودتنا إلى الوطن

فور رجوعنا إلى مصر فى عام ١٩٧٣ بدأنا نفكر فى قطعة الأرض الصغيرة التى سنشتريها لتامر كما قالوا لنا فى بنما بأن أحسن وضع للمعاق الذهنى أن يعيش فى الأرياف لبساطة الحياة وعدم وجود الإلتزامات وضجيج المدينة وزحام المواصلات التى يصعب عليه أن يتعامل معها، أما الريف فالتعامل فيه مع الطبيعة.. مع الأرض والنبات والحيوان... وأكدوا لنا بأن الشخص المتخلف لا قدرة له على فهم حياة المدينة شديدة التعقيد.

عثمان كان يود شراء هذه الأرض ليتفرغ لإصلاحها بعد خروجه إلى المعاش ليسلمها لتامر بعد ذلك ويمكنه الحياة فيها . وكانت إمكانياتنا بسيطة بعد أن

وضعنا الجزء الأكبر مع رجل الأعمال الهولندى صديقنا لتغطية جزء من نفقات تامر فى الخارج . كان معنا حوالى خمسة آلاف جنيه ننزل كل يوم جمعة نبحث عن قطعة أرض فى هذة الحدود ومعنا السمسار. نذهب إلى القناطر أوإلى قرب ترعة المنصورية أو الصفت ..

وطبعا كانت معادله صعبة لأن عثمان يريد قطعة أرض مساحتها تقبل الزراعة حتى تغطى مصاريفها ... وأخيرا وبعد فترة طويلة وجدنا قطعة أرض تابعة للإصلاح الزراعى. وكانت عند الكيلو٢٠ من منطقة «المينا هاوس» فى مكان هادئ على أحد جانبيها الصحراء وأهرام دهشوروالناحية المقابلة النخيل والزروع الخضراء... إشترينا هذة الأرض الجرداء وكنا سعداء بها ... وبدأ عثمان يفكر فى إستصلاحها بالتدريج لأجل تامر ... ولكن الشئ الغريب والذى يمكن أن يكتب فى الروايات إنه حين ذهب لتسجيل الأرض عاد وقال لى : «شيئا لن تصدقيه ...تصورى أن الحوض الذى إشتريناه إسمه» «حوض أبو تامر» يعنى لم يكن حوض محمد أو

على أو إبراهيم أو.. أو.. أو.. إنما «حـوض أبو تامـر» رغم أن إسم تامر فى ذلك الوقت من خمسٍ وعشرين سنة كان إسما نادرا فعلا.. القطعة التى إنتقيناها من كل القاهرة كانت مسجلة فى الأوراق الرسمية باسم أبو تامر.

* * *

كانت فرحة عثمان بالأرض كبيرة وهى التى جعلته يتقبل فكرة المعاش بإرتياح على أساس أنها فترة صعبة تواجه الرجال... أخذنا الأرض جرداء وقمنا بإستصلاحها... كنا نذهب إليها فى نهاية كل أسبوع، نترك زحام وضجيج القاهرة ونقضى يومين فى هدوء، وبدأ الأصدقاء يأتون معنا، سكان هذه المنطقة خليط من العرب والفلاحين. العرب من ناحية الصحراء والفلاحين من الضفة الأخرى ناحية النخيل والخضرة... كان أولادهم يأتون الينا ليلعبوا مع تامر وطبعا أنا وعثمان نشجع هذه الفكرة، فى هذه الأيام من عام ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ لم يكن التلفزيون منتشرا هذا

الإنتشار الموجود حاليا وكان لدينا جهاز نخرجه ونجلس أمامه ويأتى الجميع للفرجة عندنا... وكنا نتسلى بأكل اللب والسودانى وعلى مقربة منا نشوى الذرة.

كانت هناك روح وعلاقة طيبة بين تامر وبين هؤلاء الناس، كل الجيران ترعاه وتسأل عنه... لقد كنا سعداء فعلا بالتواجد فى هذه المنطقة التى أختارها لنا الله.. وحين زارتنا ابنتنا الكبرى «نيفين» المتزوجة فى فرنسا مع طفلتها أعجبت بالروح السائدة من جانب جيراننا تجاه تامر... وهى نفسها كانت تترك إبنتها تلعب بينهم ولا تحمل هما وتقول لى «فى فرنسا عندما تلعب «سانيا» ابنتى مع الأطفال، أكون دائما قلقة عليها لأنهم يلعبون بعنف ويبدوا أننا هنا نربى أولادنا بطريقة أفضل لأن فكرة الحرية المطلقة هناك وترك الطفل يفعل ما يشاء لها ردود فعل سلبية كثيرة».

وفى ذلك الوقت كنا قد دخلنا المجتمع المصرى بتامر... وكنا نصطحبه دون أى حساسية.. وفى مرة

ذهبنا فى رحلة إلى مدينة السويس والتقينا هناك مع ثلاثة شبان وتكلمنا سويا بينما زوج صديقتى كان مشغولا فى تغيير إطار عربته وتامر بدوره يجرب ويحاول ويحاول أن يساعده، فسألنى أحد الشبان لماذا تامر لا يتكلم العربية؟.. وكيف هذا وهو مصرى؟ فبدأت أقول لهم إن ابنى لو لم يكن له مشاكل لكان يجب أن يتكلم العربية فعلا. إنما بالنسبة له فقد كان لابد أن يتكلم لغة واحدةفقط وبما أنه مقيم فى انجلترا... فكان له أن يتعلم الإنجليزية. ومع تزايد استفساراتهم وتساؤلاتهم قلت لهم إن تامر معاق ذهنيا وأنه يقيم فى انجلترا ليتأهل بالتدريب وأنه يأتى إلينا فى الأجازات فقط... و... و... الخ ... ولاحظت أن صديقتى ظلت صامته تماما وما أن رجعنا إلى بيتنا إلا ودق الهاتف وكانت صديقتى تعاتبنى «أنا زعلانة منك جداً... لماذا تظلمى ابنك بهذا الشكل، لقد كان الشبان يجالسونه وكان تامر سلوكه لطيفا ولم يكن هناك أى داع لأن تعرفيهم بأنه متخلف ذهنيا، وحدث بينى وبينها مناقشة كانت تعتقد فيها أن طريقتى غير سليمة.

وكانت وجهة نظرى أن الإعاقة الذهنية لا يجب إخفاؤها أو التستر عليها، حتى لا يخطئ الناس فهم تصرفات المعاق، بل ويتقبل سلوكه بتفهم وحنان.

إن مناقشة صديقتى لى بهذا الحماس دليل على صدق حبها لتامر وفرط حساسيتها لكل ما يمسه ويتعلق به... وقد كان البواب وسايس الجراج وصاحب الكشك تحت بيتنا.. كانوا أيضا يهتمون به... وهذا نشأ من حرصنا على إشراكهم فى بعض الأمور التى تخص تامر مثل ميعاد مجيئه وسفره، تقدمه ومشاكله البسيطة، فشعروا أنه قريب منهم وأحاطوه بعطفهم ورعايتهم.. الجو المحيط بنا أعطانا الكثير وبالرغم من هذا شعرنا فى يوم ما بأننا أمام خيار حين نظمت وزارة الخارجية رحلة الى مرسى مطروح، وكنا فى أشد الحاجة للمصيف وتغيير الهواء هربا من حر القاهرة. والمشكلة هى أن الرحلة كانت مكونة من حوالى مائة فرد لا نعرف منهم أحداً بمعنى أنهم أغراب عنا ونحن غرباء عنهم تماما!!! فهل نذهب أم لا؟ !!

حينما كنا فى هولندا كنا معتادين على أن الأهالى يصطحبون أولادهم المتخلفين ذهنيا بتصرفاتهم وسلوكياتهم الغريبة معهم فى الأماكن العامة وكان المجتمع يتفهم ويقدر. وقد لاحظت أن الأهالى يتعاملون مع طفلهم المعاق بطريقة بناءة، بدون عصبية معه وبدون خجل منه. وفكرنا أنا وعثمان كيف سنسافر مع هذه المجموعة الكبيرة ونحن معتادون هنا فى مصر على مواجهة الأعداد البسيطة المقربة لنا والمحيطة بنا فقط، وترددنا كثيرا على إفتراض أن هناك فرقا بين مجتمعنا والمجتمع فى الخارج.. لكن أخيرا قلت لعثمان مادمنا نعيش فى مصر فلنواجه الوضع ونخوض التجربة.

وذهبنا إلى مرسى مطروح وسط مجموعة من مائة فرد وأقمنا فى نادى قناة السويس. كان تامر عمره إثنا عشر عاما إلا أن تصرفاته كانت كأنه طفل فى الرابعة أو الخامسة من عمره ومنذ اليوم الأول أعلنا بصراحة ان إبننا متخلف ذهنيا وسلوكياته غريبة نسبيا

ولابد أن نصبر عليه وأنه يتعلم ويتدرب وتدريجيا سيتحسن، وأظهرنا أننا فخورون به وأننا نحبه بشدة ونأمل من المجموعة حولنا مساعدتنا على معاملته المعاملة التى تفيده وتعطى له الفرصة على التعلم والتكيف مع المجتمع.

وكانت الإستجابة الرائعة أن هذه المجموعة الكبيرة أحتضنتنا بكل التفهم والعطاء وأيقنا أن فكرة إنضمامنا لهذه الرحلة كانت صائبة تماما وكان تامر فى أثنائها يشعر بسعادة كبيرة. كان الناس يسرعون إليه إذا ما احتاج إلى أية مساعدة وكانوا يلعبون معه الكرة وإذا اصطدمت بأحد الجالسين حين يخطئ فى رميها لا يضيقون به بل على العكس كانوا يتعاملون معه بلطف، حتى العاملون فى الفندق كانوا يلاطفونه ويعطونه الحلوى رغم عصبيته فى كثير من الأحيان.

كانت تجربة ناجحة حقا أقنعتنى أن شعبنا لا يقل تفهما وشهامة عن شعوب بلاد الغرب... أذكر أن بعض الأهل كانوا ينادون أولادهم ويطلبون منهم أن يلعبوا مع

تامر وكان ذلك يسعدنى جدا لأن هذا هو ما نريده، إن المجتمع يحترم المتخلف ذهنيا ويساعده، ويعلم الصغار على ذلك..

وفى آخر يوم أقاموا حفلة للوداع وكانت أول جائزة أعلنوا عنها هى جائزة «الروح الرياضية» لتامر فوزى، وضج المكان بالتصفيق ووقف تامر فخورا وذهب إلى مائدة لجنة التحكيم ليتسلم جائزته، أنا نفسى لم أستطع أن أحبس دمعتى من شدة التأثر... ثم بعد ذلك نظموا ألعاب مثل الكراسى الموسيقية وكان الشباب يتعمد أن يجعل تامر يفوز... وخرجت من هذه التجربة وكلى ثقة فى أن أذهب بأبنى إلى أى مكان فى الدنيا.

وبعد سنوات حين أنشأنا «جمعية الحق فى الحياة للمعوقين ذهنيا» فى عام ١٩٨١ أى بعد حوالى ثمانى سنوات من هذه الرحلة جاءتنى سيدة وسألتنى إذا كنت أنا من كانت فى رحلة مرسى مطروح؟ وهل أنا أُم الطفل المعاق الذى يتربى فى انجلترا؟ولما أجبتها قالت

لى إن أختها كانت ضمن أفراد الرحلة وإنها عادت وهى متحمسة ومتعاطفة جداً مع الإنسان المعاق...

المهم أن هذا الإنطباع الذى نقلته لى هذه الزائرة عن أختها أسعدنى كثيرا لأن هذا ما يجب علينا كأهل لمعاقين وهو أن نتكلم عن أولادنا ونجعل الناس تتفهم مشكلتنا وتتعاطف معنا وبذلك نساعد على التوعية العامة ونساعد على خلق عالم أفضل لأولادنا.

وهكذا سارت حياتنا فى مصر... وطننا الحبيب، بين الأهل والأحباب، إلا أن المعاناة كانت قاسية جداً علينا بسبب بعد تامر عنا وأيضا بسبب القلق الذى ينتابنا مع كل زيارة منه أو رجوعه إلى إقامته فى انجلترا، فى كل مرة كان يلزمه ترتيبات ضخمة حتى لا يتوه فى المحطات والمطارات بسبب نشاطه المفرط لأنه لايأخذ الطائرة من لندن إلى القاهرة مباشرة وانما يأخذ القطار من بريستول إلى لندن ومن لندن إلى المطار ثم الى القاهرة، وكان عليه أن يجمح نشاطه لمده خمس ساعات طيران.

وحين كنا ننتظر وصول الطائرة ويخبرونا بأنها سوف تتأخر لمدة غير محددة نفكر ونتساءل هل سيتحمل تامر كل هذه الساعات؟ وإلى أى مدى سبب المتاعب لمن حوله.. ؟

ولاأنسى أيام حرب ٧٣ حينما إنقطعت المراسلات والمكالمات وكل وسائل الإتصال ولمدة طويلة بيننا وبين تامر.

ولا أنسى اليوم الذى أوصلت فيه تامر الى المطار وكان الجو صحوا جميلا ولما رجعت إلى بيتى مرهقة من إنفعالاتى النفسية ومن سهرى على إنهاء ترتيبات سفر تامر من غسل وكى وخياطة إسمه على كل شئ جديد يحمله معه، هذا بخلاف كتابة الخطابات لكل من يرعاه هناك فى انجلترا، إرتميت على فراشى وأستغرقت فى النوم.

وحين استيقظت فى الصباح قرأت فى الصحف أن أعاصير وثلوجا لم يسبق لها مثيل قد اجتاحت انجلترا

وتسببت فى حوادث كثيرة على الطرق وفى إنقطاع المواصلات والكهرباء والاتصالات السلكية واللاسلكية.

وكان هذا الخبر موضوع الساعة فى جميع إذاعات العالم فهرولت إلى التليفون لأتصل بالمدرسة أطمئن على تامر ولكن لم أستطع الحصول على رد. «حينما عثرت على المرافقة له «مسز موريس» بصعوبة أخبرتنى بأن تامر وصل من وقت قصير الى مدرسته ، وأننا من حسن حظنا أن الأعاصير بدأت بالأمس بعد وصول طائرته مباشرة، وازدادت عنفا فاضطر الأوتوبيس الذى نستقله إلى التوقف ولجأنا نحن الركاب إلى حانة صغيرة لنحتمى فيها من الثلوج التى أعاقت مسيرة أى مركبة.

وحين هدأت الأمور نوعا ما، واستطاعت بعض المركبات الخاصة من إستئناف السير، إستنجدت بإبنتى لتصحبنا بعربتها الخاصة لأن الليل قد أقبل، ووصلنا إلى المدرسة فى وقت متأخر من الليل وفى ظلام دامس وذلك لإنقطاع التيار فى المنطقة». فلما سمعت هذا كله

حمدت الله اننى استغرقت فى نومى وأن إنزعاجى للأحداث أستمر لمدة قصيرة فقط، حتى إطمأن قلبى.

* * *

كان تامر يأتى إلينا مرتين فى السنة بدلا من أربع لظروفنا المادية وتأقلم سريعا مع الحياة فى مصر وبدأ يفهم العربية تدريجيا ولكنه لم يقدر على نطق كلمة واحدة عربية لأن نطق الإنجليزية الذى تعلمه يختلف تماما عن لغتنا نحن. إنه يضحك على نفسه جدا حين نعاكسه ونطلب منه أن يقول كلمة عربية وتخرج بعيدة كل البعد عن الصحيح. إنه يحب مشاهدة التلفزيون لأنهم فى المدرسة لا يسمحون به إلا قليلا.... وبسرعة تعرف على البرامج وأبدى اهتماما بها وتعلم من خلالها عاداتنا وتقاليدنا، وتعرف على مذيعينا وممثلينا. كل ذلك لم أكن أدركه حينذاك ولكن أدركته مع الوقت.

* * *

إن تامــرا ودود مع كل الناس لذلك كنت شديدة الخوف عليه. وفى بريستول يستطيع أن يتجول حول

المنطقة الهادئة المجاورة للمدرسة ويذهب إلى بعض المحال والكل هناك يعرفون تلاميذ المدرسة الخاصة، كان يتمتع بشئ من الحرية ويحس بنفسه كشخص مستقل.

ولكن فى القاهرة مع عدم الوعى لمشكلته وعدم إنضباط حركة المرور والزحام الشديد فالوضع يختلف... كيف سيتعامل الناس معه؟ كنت أسمح له أن ينزل إلى الكشك على نفس رصيف بيتنا فقط، وهو دائما يسمع كلامى كما دربته. فانطلاقة وسعادته الحقيقية كانت عندما نذهب إلى مزرعتنا التى يسميها «ذى فارم» يقصد «العزبة» وذلك لأن خفير الأرض كان يملك بقرا وحيوانات أخرى وتامر شديد الإهتمام بالحيوانات. كان يرافق والده فى مباشرة المزرعة.... يجرى ويلعب الكرة مع الأولاد... وكانت سعادة عثمان كبيرة برؤيته منطلقا ومستمتعا. أما أنا فكنت أمضى وقتى فى القراءة والحياكة وأنا جالسة تحت ظلال شجرة التوت التى كانت أمام إستراحتنا الصغيرة.

* * *

والدى ووالدتى كانا قد كبرا فى السن، يقطنان فى حى مصر الجديدة ونحن فى حى الزمالك ولم يكن كوبرى أكتوبر موجودا فى تلك الفترة فكنا نقطع الطريق إليهم فى ساعة ونصف من شدة الزحام. لا أنسى أيام كان والدى مريضا وعلينا أن نذهب إليه كل يوم لمدة شهور...! وعندما توفى والدى كانت أول تجربة لتامر مع الموت. لقد كان شديد التعلق بجده وجدته. ولما جاء من بريستول وسأل عن جده قلنا له أنه مات وذهب لربه (فوق فى السماء). وكلامنا هذا كان له أثر واضح عليه لأنه كان يردد هذا الخبر بلغته الخاصة به لكل من يقابله. وأدركنا أنه فهم معنى فراق الموت، لأنه لم يعد يطلب رؤية جده.

ثم أخذنا والدتى لتعيش معنا فكانت تشاركه فى حجرته وتوطدت العلاقة بينهما وساعدته على تحمل هذا الفراق.

كانت متطلبات الحياة تزداد وبدأنا نفكر جديا فى كيفية مواجهة كل هذا الإنفاق المطلوب منا وخصوصا

تكاليف سفر ومجئ تامر وإحتياجاته... وكان المعاش لا يكفى، بكل المقاييس كان دون المستوى. وبعد تفكير عميق كان القرار الصعب وهو أن نترك الشقة الجميلة التى نعيش فيها فى الزمالك والمليئة بكل وسائل الراحة وكل الذكريات التى جمعناها من أنحاء العالم، ونؤجرها مفروشة ونعيش نحن فى شقة والدى فى مصر الجديدة ومعنا والدتى.

بالاضافة إلى الغلاء كانت هناك مشكلة أخرى وهى أن بيت الزمالك شديد الإتساع وكلما طلبت أحدا لمساعدتى كان ينظر إلى إتساع الشقة ثم يطلب راتبا خياليا لم يكن فى إستطاعتنا تدبيره، وقدرت أنه مع مرور الزمن ستتفاقم المشكلة ولن أستطيع أن أواجه إمكانية تنظيف البيت بمفردى حتى أحافظ على المستوى المطلوب... فعرضنا الشقة للإيجار وأنا مقتنعة تماما بما أفعل رغم حبى لكل ركن فيها وقررت أن أبيع الأشياء التى لست فى حاجة إليها. وجاءتنى سيدة تشترى ثلاجة كانت قد عاينتها من قبل وقلت لها فى

سياق الحديث اننى مضطرة إلى بيعها لإننا سننتقل إلى شقة صغيرة هذا الأسبوع فقالت لى «ليس معقولا أن تتركى كل هذا الجمال... لقد حكيت لزوجى عن بيتك وعن أناقته وعن جمال موقعه لأنه يطل من كل نافذة على الخضرة اليانعة والزهور المتفتحة».

تأثرت من كلامها جدا وجلست مع نفسى حزينة ومتألمة أتأمل كل ما سأتركه. ودق الباب وسلمنى ساعى البريد خطابا من صديقه لى فى هولندا تقول فيه «خيرا ما فعلت، أنا أعلم أنه سيكون صعبا عليك جدا ولكن تشجعى، حقيقة... إن منزلك جميل والكل معجب به ولكن أنت وحدك التى ستواجهين متاعبه».. جاء هذا الخطاب ليساندنى فى لحظة ضعف ويذكرنى بأن الله معى. ولم أكن أعرف أن هذه النقلة تحمل لى خيرا كبيرا... لأنى لو لم أنتقل إلى مصر الجديدة ما كانت الظروف أتاحت لى أن ألتقى بزميلاتى لننشئ «جمعية الحق فى الحياة».

وإنتقلنا فعلا إلى مصر الجديدة وأصبحت بجوار أختى ليلى فاجتمعنا أنا وأمى وشقيقتى وإقترب تامر من خالته الوحيدة ورأينا سويا تامرا يكبر ووصل إلى فترة من فترات حياته كل الأهل يتساءل عنها وهى فترة البلوغ. بالنسبة لنا بالذات لم تكن هناك مشكلة ربما لأن تامرا شديد الإعاقة بمعنى أنه غير مدرك تماما لمسألة الجنس بالإضافة إلى أن فى انجلترا نشأوا فى المدرسة على التعامل اللائق ووجود الحدود الفاصلة المهذبة بين الأولاد والبنات، يمضون أغلب حياتهم فى أنشطة مختلفة تستنفذ طاقتهم، كما يراعى فى مشاهدتهم للتلفزيون البرامج التى لا تثير الجنس.

قلّت نوبات الغضب عند تامر ولكننا أيضا تعلمنا كيف نتفادى المواجهة العنيفة معه حتى لا نثيره، مع حفظ حزمنا فى المؤاخذة على الخطأ.

أتذكر حادثا بالذات كان نقطة التحول فى معاملتنا له وأدركنا أنه أصبح شابا وليس طفلا بعد. كان قد بلغ حوالى الخامسة عشرة سنة وكان سلوكه قد تحسن كثيرا

وقلتّ عنده الإنفعالات الشديدة والعناد، إلا أنه كان مازال يستعمل ألفاظا سيئة كلما إحتجّ على شئ. وكنا أتبعنا أسلوب إرساله إلى حجرته لمدة محددة كلما شتم لأنه، كما نقول له، غير جدير أن يكون برفقتنا.

فى ذلك اليوم كان والده غائبا ورفض تامر أن يدخل حجرته وإستعملت شيئا من العنف معه وكان أن دخل غرفته وفى نوبة غضب حطم مرآة الدولاب بقبضة يده... تماسكت حتى لا يشعر أنه ألقى الرعب فى قلبى وبهدوء مصطنع سألته إذا كان قد جرح نفسه (والحمد لله كان جرحا بسيطا) وانفزع هو كثيرا وسرعان ما هدأ وتأسف مرارا وتكرارا. تعمدت أن يمكث الوقت المحدد فى حجرته حتى لا يجد هذا السلوك فعالا، لكنى أخذت جرح يده عذرا لأمكث معه لأداوى جرحه وأقول له كم سلوكه كان غير لائق.

فى هذا اليوم أدركت أنه كبر وأنه يجب علينا أكثر من قبل أن نعامله بطريقة لا تهينه مع حفظ الحزم معه،

طبعا هى معادلة صعبة لكننا كثيرا ما نواجه هذه المعادلة مع أبنائنا العاديين. وتأكدت أن العنف فعلا لا يولد إلا العنف.

* * *

نشأة جمعية الحق فى الحياة

وفـى يوم طلبت منى صديقة أن أقابل سيدة رزقها الله بطفل متخلف ، شديد الإعاقة ، وله من العمر سنتان، وطلبت منى أن أطيب خاطرها وأضرب لها المثل بنفسى ، وبأن ا بنها مع التدريب السليم يمكن أن يتحسن ويصبح مثل ابنى ... أفهمتنى صديقتى أن أم الطفل قد قالوا لها فى «لندن» بأن لافائدة ترجى منه ومع ذلك قالت «ليس هناك مستحيل بالنسبة لإبنى، سأعطيه الحب والرعاية والتأهيل على قدر إستطاعتى».

وحين تقا بلنا وجدتها سيدة شجاعة ومثقفة وعلى علم كبيربأمور الحياة. وقد رأت تامر لأنه كان حينذاك موجودا فى القاهرة. قلت لها: «لا تيأسي غدا سيكون...

ويكون... ويكون» .... وبعد أن استمعت إلىّ قالت لى «إنك تقولين هذا لأنك وجدت من يقوم بتدريبك أنت وتامر فى الخارج، أما أنا فكيف أجد هذه الفرصة هنا فى مصر؟!! أنت استطعت أن تلحقيه بمدرسة فى الخارج ولكن أنا إمكانياتى محدودة ولا تسمح» فاندفعت قائلة لها: «أنا مستعدة لمساعدتك». قلت هذه العبارة وليس فى ذهنى شئ معين ولكنى شعرت بإحترام لهذه السيدة، فقد هزت مشاعرى لأنها كانت صادقة وجادة فى محاولة إنقاذ ابنها. فقلت لها «لنقرأ سويا الكتب المتخصصة لنتعلم منها كيفية تدريب وتأهيل «كريم» ابنك.

إنصرفت هى وتركتنى أستعيد الماضى، وأتصور كيف قد يكون حالى إذا كنت فى مكانها وعاجزة تماما فى أن أساعد ابنى. وأدركت كم كان الله كريما معى ورحيما بى حينما هيأ لى الظروف لتعليم وتأهيل تامر. وكلما خلوت إلى نفسى أسمع صوتها «أنت إستطعت أن تلحقى ابنك فى مدرسة.. ولكن أنا لا أستطيع»..

وشعرت بتفاهة عباراتى حين قلت لها لا تيأسى ابنك سيكون مثل ابنى وسأساعدك.. كيف هذا؟... وبكل هذه البساطة!! إن عملية التعليم استغرقت منى ومن تامر سنوات بمعنى أنها عملية دائمة ومستمرة تحتاج إلى إرشادات فنية وإمكانيات.. و.. و..

من هذه المقابلة بالذات نبتت فكرة أن نتجمع نحن أهالى المعاقين ونؤسس جمعية مثل التى فى البلاد الغربية ولا ننتظر مساعدة الحكومة بل نكافح ونناضل بأنفسنا مثلما فعل الأهالى هناك، وننشئ مدرسة نتبع فيها نفس أسلوبهم فى التعليم والتأهيل... وتحمس عثمان زوجى لهذه الفكرة وساندنى فى كل خطوة ولم يدخر وسعا فى سبيل تحقيق هذا الهدف... فبدأت أسأل عمن لديهم أطفال معاقين ذهنيا وتعرفت على بعض الأمهات وعرضت عليهم أن ننشئ جمعية تعتمد على عدد أكبر من الأهالى - سيدات ورجال - أهالى المعاقين بالذات لأنهم سيكون لديهم الدافع لهذا العمل الجاد. بدأنا فعلا نتصل بالأهالى وكونا مجموعة من ثلاثين عضوا

سجلت عام ١٩٨١ تحت اسم «جمعية الحق فى الحياة للمعوقين ذهنيا» وأنتخب لها مجلس إدارة مكون من تسع سيدات: ست أمهات والباقيات أخوات لهن... وكن متحمسات لأنهن يعشن المشكلة مع أخواتهن. وهن السيدات «ايفلين مصطفى شاكر رئيس مجلس إدارة، نعيمة صالح نائبة للرئيس، سامية فهمى سكرتير الجمعية، تفيدة حماد أمين صندوق، عضوات مجلس الإدارة: نديدة شكرى، فاطمة صقر، فخرية صقر، سهير فهمى، استريد بحرى، والسيدة فريدة الجزار عضو مؤسس ودائمة الوجود مع أعضاء مجلس الإدارة. إنضمت إلينا بعد ذلك متخصصة فى الإعاقة الذهنية كعضو فنى لمجلس الإدارة وهى الآنسة نادية أديب.

أراد الله لمصر ولأبناء مصر إنشاء هذه الجمعية لأنه سبحانه وتعالى يسر إلتقاء إحدى عشرة سيدة سويا ولكل واحدة منهن مميزات فى شخصياتها وأسلوبها مكنتهن جميعا من أن يعطين وينشئن جمعية رائدة تخدم الإعاقة الذهنية بأسلوب علمى متخصص،

ولايفوتنى أن أذكر أن المؤسسين الرجال كانوا ومازالوا دائما فى خدمة الجمعية عندما تحتاج إليهم.

أذكر أننا حين تقابلنا نحن العشرة كان كل تفكيرنا منحصرا فى عمل مدرسة صغيرة كنموذج فى المجتمع للشكل الذى يجب أن تكون عليه مدرسة التربية الخاصة للمعاقين، بمعنى أن نقدم صورة حقيقية نحن نفتقدها فى مصر عن التربية الحديثة والتأهيل الحديث للمتخلف ذهنيا ونضع كل أفكار وتجارب البلاد التى سبقتنا فى هذا المجال فى مدرستنا الصغيرة جدا، وكان غاية طموحنا أن ننشئ فصلين أو ثلاثة ندرس ونؤهل فيهما الأطفال بالطريقة المتقدمة المتبعة فى البلاد الغربية.

وما حدث هو أن شقيقتين من المجموعة كانتا لهما علاقة براهبات مدرسة الدليفراند بمصر الجديدة فطلبا منهن السماح فى أن نستخدم حديقة المدرسة، وكان الوقت صيفا والجو جميلا والمنطقة هادئة. وابتدأنا نلتقى هناك وفكرنا أول ما فكرنا أن نعمل ناديا إجتماعيا

لأولادنا على أساس تسليتهم بأشياء مفيدة وبناءه لحين أن يتم إشهار الجمعية. وكنا نجتمع فى الحديقة ثلاث مرات أسبوعيا وكان لدينا خمس أطفال من أعمار خمس سنوات إلى سبع سنوات وأيضا مجموعة من الشابات مكونة من ثمانى بنات. ووضعنا برنامجا للصغار وبرنامجا للكبار وإستعنا بمتطوعين لتطبيق البرنامج على الأطفال الصغار والشابات.

أدركنا أن الخبرة الفنية والعلمية تنقصنا فاتجهنا إلى الآنسة نادية أديب حتى تنضم إلينا.

الآنسة نادية كانت قد سافرت إلى الولايات المتحدة وتخصصت هناك فى التربية الخاصة للمعاقين ذهنيا ولما عادت إلى مصر ساهمت فى إنشاء فصول للأطفال المعاقين ذهنيا فى مدرسة رمسيس للبنات وكانت الأمهات حين ذاك تكن لها كل الحب والتقدير لما لاقين منها من معاملة طيبة وخبرة متميزة. ثم تركت مجال الإعاقة وعملت فى شركة خاصة وإستقرت فيها وعندما عرضنا عليها أن تنضم إلينا منحتنا يوما فى الأسبوع

من أجازتها الأسبوعية لتعاوننا بخبرتها فى الأنشطة التى كنا قد بدأنا فى تنظيمها للأطفال فى الحديقة الهادئة بمصر الجيدة.

راهبات مدرسة الدليفراند حين وجدونا نلعب فى حديقتهن كن ينضممن إلينا وبدأن يهتممن بنا وبأطفالنا المعاقين ولما انتهى الصيف صرحت لنا الأم «مارى جوزيف» رئيسة المدرسة بإستخدام فصولهن بعد ساعات الدراسة الرسمية حتى لا يتوقف نشاط نادينا الصغير وحتى نتمكن من تكملة برنامجنا ـ لقد أفسحت لنا المكان لنتطور وأعطتنا حجرتين، فصلا للصغار والآخر للثمانية الكبار وكانت الحجرة الثالثة تضم بيانو وبعض الآلات الموسيقية. لقد دخل علينا الشتاء وكان البرد شديدا وبرنامجنا يبدأ بعد انتهاء الدراسة فكانت حجرة الموسيقى هذه تجمعنا نحن الأمهات وتحمينا من البرد.

الراهبات تعلقن بنا وتداخلن معنا وبحثن لنا عن أكثر من وسيلة لمساعدتنا، وهن طبعا على مستوى عال

من الناحيـة التربوية وهن من قـدمن لنا الأكـفـاء من المدرسين ومن يصلحون لمثل هذا العطاء. نحن جميعا لا ننسى فضل الأم «ماري جوزيف» التي منحتنا المساندة والمكان المناسب لنبدأ نشاطنا.

أول مـا بدأنا العمل لم يكن لدينا رأس مال ولكن المال أتى إلينا بعد أن بدأ الناس يعرفوننا ويرون العمل الجاد في حجرات مدرسة الدليفراند وبدأت التبرعات صغيرة ثم ازدادت مع الوقت. أتذكر عندما أردنا أن نجمع شيئا من السيولة النقدية حتى يتسنى لنا الإنفاق على النادي الصغير في حديقة المدرسة فكرنا في إقامة سوق خيري بسيط إلا أن حماس الأصدقاء دفع إلينا بكميات كبيرة ومتنوعة من التبرعات العينية من الملابس إلى قطع الأثاث الصغيرة وأدوات الزينة والعطور... الخ. وهذا الكم من التبرعات بدوره دفعنا إلى أن نقرر إقامة السوق الخيري في نادي هليوبوليس الرياضي بل وأكثر من هذا فكرنا في دعوة السيدة سوزان مبارك لإفتتاحه. ولم يكن لدينا أمل كبير في

قبولها الدعوة لأنها كانت وصلت إليها متأخرة جدا ونحن جمعية صغيرة لم يسمع بنا أحد بعد، ولم نثبت أنفسنا بعد... وكانت مفاجأة كبيرة لنا أن قبلت حرم الرئيس دعوتنا رغم أن برنامجها فى ذلك اليوم كان مشحونا ومرتبطا بنشاطات أخرى، إلا أنها جاءتنا مبكرة قبل بداية برنامجها فى حوالى التاسعة والنصف صباحا... إن شرف حضورها كان بمثابة التشجيع المعنوى الكبير لنا وأضفى علينا مكانة ومصداقية لدى الآخرين. ومنذ هذا اليوم وهى تتابع خطواتنا وتفرح لنجاحنا المتلاحق وجاءتنا تفتتح الخمس حجرات سابقة التجهيز التى أقمناها كأول مركز فى فناء مدرسة الدليفراند وهو يضم الأطفال من الساعة التاسعة صباحا إلى الرابعة مساء. ومنذ ذلك اليوم وهى تتابع نمو أطفالنا التى تعرفهم واحدا واحدا وتقف بجانبنا دائما فى المناسبات الهامة ونشعر أنها لا تدخر وسعا فى مساندتنا.

أرجع إلى قصتى، فبعد مضى عام من نشاطنا فى النادى شعرت الآنسة نادية بأن هذه المجموعة من

الأهالى متحمسة وملتزمة وبأن هناك شيئا جادا يتبلور فانضمت إلينا كعضوة فنية متفرغة لتدير برامج الجمعية فى التعليم والتأهيل.

وكان إنضمامها لنا توفيقا من عند الله لأن خبرتها العالية فى مجال التربية الخاصة للمعاقين ذهنيا وتفانيها فى العمل مكن الجمعية من أن تقدم خدمة متميزة مبنية على أساليب علمية حديثة وأن تخطط بثقة فى التوسع والتطوير.

حماسنا وعملنا الجاد فى هذا المكان الصغير لفت أنظار المهتمين بهذا المجال وجذب لنا الزائرين وسرعان ما التف حولنا الأصدقاء والمساندون.

وتبرع لنا نادى الليونز مصر الجديدة بثمانية عشر ألف جنيه وهذه كانت الفرصة التى مكنتنا من أن نبنى فصولا سابقة التجهيز. وندين لرئيسة مدارس الدليفراند فى العالم الأم مارى دى لن كرنسيون (وهى مصرية الأصل) بالفضل فى تكوين مدرستنا بتصريحها لنا بأن

نأخـذ جـزءا من الفناء ونبنى عليـه خـمس حـجـرات صـغـيـرات: ثلاثة للأطفـال الصـغـار وحـجـرة لتـأهيل الشابات وحجرة طعام بها ركن مطبخ، وقد حرصنا على أن نقدم للأطفال وجبة غذاء كوسيلة تربوية يتعلمون من خـلالهـا آداب المائدة واسـتـخـدام أدواتهـا وعـمل «الساندوتش» وفتح الثلاجـة وهى كلهـا أشيـاء حـيـوية لحياتهم اليومية واستقلالهم.

فى هذا الوقت إزداد عدد التلاميذ إلى ثلاثين وكان أصغرهم له من العمر خمس سنوات وأكبرهم عشرين عاما. كانت حـجرة الكبار فى منتهى الجمال، لم تكن واسعة جدا ولكننا نظمناها بطريقة مناسبة حتى تستوعب الثلاث عشرة شابة المعاقة وقد إستغلينا كل شبر فيها لشئ مفيد.

كـانت الحـجـرات تعطى الشعور بالدفء والشعور بالمرح والحب والتـفـاؤل ومكثنا فى الخـمس حـجـرات حوالى خمس سنوات، والعمل فى هذا المكان الصغير هو

مـا مكننا من التـوسع بعـد ذلك لأنه هو مـا أقنع الناس بجـدوى عـملنا وجـذب لنا التبـرعـات بسـخـاء. إننا فى البداية لم نفكر فى التوسع أبدا لأنها مسئولية كبيرة بل كـان كل هدفنا فى الواقع ـ كـمـا قلت ـ أن نقـدم نموذجـا فقط ليتعرف الناس على المضمون الصحيح لهذا النوع من التعليم.

إلا أن ضغط الأهالى والسمعة الطيبة التى أصبحت لنا وتشجيع الأصدقاء الملتفين حولنا دفعنا رغما عنا إلى التـوسع، لأننا لم نكن نسـتطيع أن نتـغلب على شـعورنا بالألم النفسى والأهالى يأتون إلينا بأولادهم المعاقين من أطفـال وشـبـاب يرجـونـا أن نعطيـهم فـرصـة لتـدريب أولادهم معنا ونحن لا نسطتيع تلبية رغبـاتهم فى مثل هذا المكان الصغير.

فكرنا أن نعطى خـبرتنا لمجمـوعـات أخرى حـتى يسيـروا على هدى خطواتنا بعد أن تمكنت الجمعـيـة أن تصعد سلم المعرفة والإتقان بخطوات واثقة ثابتة إلى أن أصبحت مثالا لخدمة ورعاية الإعاقة الذهنية.

ومن واقع خبرتى أستطيع أن أقول لأى مجموعة تبدأ فى تكوين جمعية أن المال يأتى، ومن الممكن أن يأتى بسخاء، ولكن لابد أن تثبت أية جمعية نفسها أمام الأهالى وأمام الزوار أولا، ولابد أن يلمسوا صدق العمل والنتيجة الفعلية لخدماتها التى تقوم بها فعلا، ولا يمكن أن تخدع المجتمع لأنه عاجلا أم آجلاً سيفرق بين العمل الجاد والمظاهر التى يراها فقط عند الزيارة.

وأكرر مرة أخرى أن الأصحاب والمعارف الخيرين هم الذين مكنونا ودفعونا إلى التوسع وإلى خلق الطموحات داخلنا حتى نفيد أكبر عدد.. وكان من الممكن أن نأخذ الطريق الأسهل ونكتفى بالثلاثين طفلا فقط وعلى قدر طاقتنا، لأننا جميعا مكبلون بالإلتزامات الأسرية، وطفلنا المعاق يأخذ أصلا جهدا كبيرا ومستمراً، ولكن شعورنا بيأس الناس التى تأتى كل يوم وتطلب المساعدة جعلنا نحس بأننا مقصرون وتساءلنا فعلا لماذا لا نتوسع؟.. ما الذى يمنعنا مادام فى إستطاعتنا الآن أو فى المستقبل أن نساعد الآخرين؟ فاشترينا أرضا واسعة

فى منطقة متميزة بمصر الجديدة وبنينا عليها مقرنا الحالى. فى ذلك الوقت كنا نحاول أن نؤثر على الأسر والأهالى أن ينشئوا جمعيات أخرى مثلنا وأيضا نحاول أن ننبه المجتمع فى أن يلتفت إلى المتخلف ذهنيا وأن يعطيه حقوقه وأن يشعر به ولا يغلق عينة مادامت المشكلة لا تمسه مباشرة.

كانت الدعوة الأساسية لجمعيتنا وحجر الزاوية فيها أن نقول للأهل وأصحاب القلوب الخيرة أن عليهم أن يبدأوا بالجهود الذاتية وأن العمل التطوعى يمكن أن يغطى النقص الموجود فى بلدنا، فليس شرطا أن يعتمد الأهل وينتظرون الحكومات فى كل شئ، وذلك لا يأتى إلا بالعمل التطوعى والبداية تكون بفصل فى مدرسة أو حجرة فى ناد أو شقة يمتلكها أحدهم، ونؤكد للأهل أن الفائدة عندئذ تصبح مزدوجة، فائدة للإبن وأخرى لمن اتحدوا على خلق هذا النشاط لأنهم سيجدون الرفيق والصديق. إننى أستطيع أن أقول إن أحب الأصدقاء وأقربهم إلى قلبى، ومن شعروا بى أكثر من كثيرين فى

عائلتى، هم من المجموعة التى إتحدت وكونت «جمعية الحق فى الحياة». لقد أصبحنا أخوات فى وقت الشدة، يساعد بعضنا البعض وبدلا من أن تكون لى أخت واحدة هى «ليلى» صار لى أخوات.

إن الأسر حين تجتمع سويا ويكون لهم مشكلة مشتركة يستطيعون أن يجدوا لها الحل الأمثل لأن كل واحدة تعطى خبرتها ورأيها وبذلك تتسع الرؤية، بالإضافة إلى أن روح المجموعة تقلل الشعور بالوحدة وتزيد الحماس والانطلاق للعمل.

وهذا ما حدث لنا فعلا، فبعد تأسيس المدرسة الخاصة بالجمعية وقسم التأهيل المهنى توسعنا فى نشاطنا وأنشأنا ورشا إنتاجية لتتيح الفرصة للشباب الذى أتم تدريبه عندنا للإنتاج فى جو مناسب له. أدركنا أن ندرة المدرس المتخصص عائق كبير للتوسع فى الخدمات فأنشأنا سنة ١٩٩١ «مركز دراسات التربية الخاصة» بالتعاون مع جامعة أوسلو بالنرويج، وبهذا

المركز ساهمنا مساهمة فعالة فى إقامة مراكز أخرى على غـرار مـركـزنا فى مـحـافظات مـصـر وفى الدول العربية.

تامر يكبر ونظرة إلى المستقبل

أقول إن رعاية المعوق الذهنى لا تنتهى عند إنتهاء تأهيله فى المدرسة كما كنت أتصور بل أدركت أنه يحتاج بعد ذلك إلى أن نوفر له عملا يثبت فيه ذاته وأن نؤمن له حياة كريمة بعد أن يكبر والداه ويصبحان غير قادرين على العناية به ومتابعته. ففى الخارج توجد جمعيات تنشئ بيوتا للمعاقين ليعيشوا فيها باقى العمر عيشة كريمة وحرة.

والحرية التى أقصدها تكون على قدر قدرات كل معوق لأنه يعيش فى بيت وليس فى مدرسة داخلية أو دار إيواء، بمعنى أن البيت بلا أسوار إنما بابه مفتوح للزيارات ومفتوح أيضا للمقيم فيه أن يدخل وأن يخرج، يعيش المعاق فى جو عائلى دافئ وسط أناس تشرف

على هذا البيت وترعاه هو وتساعده، هم موظفون لديهم خبرة وحب لهذا العمل ويعرفون كيف يعاملون الإنسان المعاق. ويلاحظ أن هناك تنشأ دائما علاقة جميلة بين المقيمين فالأكبر خفيف الإعاقة يرعى زميله شديد الإعاقة وبذلك يقل العبء على القائمين على الدار ويشعرون فى نفس الوقت بروح العائلة والإنتماء. كما يجب على هؤلاء الشباب أن يخرجوا ويعملوا - كل حسب قدراته - فى محيط هذه الدار حسب إمكانية الجمعية وإتصالاتها بالبيئة المجاورة، والعمل عادة يكون كمساعد فى مكتبه أو مصنع صغير أو محل لبيع الحلوى أو أى عمل بسيط فى فندق أو لعله يساعد فى أعمال منزلية فى البيت المقيم به مثل كى الملابس وغسلها فى الماكينة والمساعدة فى المطبخ ورى الحديقة... الخ.

البيت يمكن أن يكون شقة تستوعب ثمانية أفراد وقد تستوعب إثنى عشر أو تكون على أرض واسعة فى جهة ما تستوعب ثلاثين فردا مثلا، على حسب إمكانية وظروف كل جمعية.

وهذه الجمعيات أو البيوت يلزمها إدارة واعية، ومن الضرورى أن تجد طرقا لتؤمن نفقات المجموعة على المدى الطويل. إنها عملية ليست بسيطة ولا تقتصر على الإقامة الكاملة والملبس والعلاج ولكن هناك مصاريف الكهرباء والصيانة ومرتبات المشرفين ومن يعملون فى التنظيف والترتيب والتشجير إن وجدت حديقة، ولهذا السبب أصبحوا فى الخارج اليوم يفضلون المجموعات الصغيرة لسهولة إدارتها وتمويلها.

يجب التنويه أن هذه الأماكن تمول من خلال جمعيات خيرية إجتماعية وتبرعات بالإضافة إلى معاشات المعاقين وتأميناتهم الاجتماعية. فى البلاد التى زرتها فى الخارج كل هذه الجمعيات والديار تندرج تحت إشراف وزارة الشئون الاجتماعية إذ لابد أن تحكم الرقابة على النواحى المالية وتشرف على النواحى الصحية، ولها قوانين صارمة بالنسبة للرعاية عموما كما تراعى بشدة نسبة أعداد العاملين إلى نسبة أعداد المعاقين فى الدار، إن المستقبل فى بلادنا يحتم على

الأهالى إنشاء مثل هذه النوعية من البيوت لضمان إستمرارية رعاية المعاق بعد رحيل والديه. وهذه المسئولية يجب أن تأتى من جهود ذاتية منظمة، لنا أمل أن نراها تتحقق عندنا قريبا إن شاء الله.

ولكن حتى نقوم بمشاريع كالتى وصفتها ونعمم المدارس للأطفال، والتأهيل المهنى والورش الإنتاجية للشباب ومن ثم بيوت للإقامة الدائمة يجب أن نعد الفنيين الذين يديرون هذه المراكز بكفاءة وإنسانية.

كثيرا ما يأتى إلينا أناس يرغبون فى العمل كمدرسين ومدربين ويقولون: «أنا عندى عطاء وأرغب العمل فى هذا المجال» نحيطهم علما أن من يريد مزاولة هذه المهنة يجب أن يكون متحمسا لها جدا ومقتنعا بجدواها بل ويشعر بالفخر من مزاولتها وبالرغبة الشديدة فى أن يسخر علمه للوصول لكل معاق... ويجب أن يكون هذا الشخص سريع البديهة وله طريقة مشوقة حتى يوصل المعلومة ويبقى مستحوذا على إنتباه

المعاق وإهتمامه، ومن المهم أيضا أن يكون حازما لأنه لو أعطى حنانا وحبا دون الحزم المطلوب لن يصل إلى أى نتيجة. هذا بخلاف القدرة على الإتصال بالأهل ومناقشتهم بالطريقة التى يتقبلونها من أجل أن يحدث التعاون بين المدرسة والبيت. هناك بعض الأسر لديها مشاكل فى التعامل مع الابن المعاق أو مع الأخوة تجاه أخيهم وهنا شخصية المدرس وقدرته على التوجيه يصبح لها دور هام وضرورى لحل هذه المشاكل وفهم نفسية الأهل.

مدرس التربية الخاصة يجب أن يدرس بجانب المواد العلمية المتخصصة، الإيقاع والغناء والرسم والأعمال الفنية وأيضا التربية الرياضية بالقدر الكافى الذى يمكنه أن يستعمل هذه الفنون لتأهيل التلاميذ الذين فى رعايته.

الموسيقى مثلا تلعب دورا كبيرا مع أولادنا فهى تشعرهم بالهدوء والأمان.

وبالأغانى يمكن توصيل المعلومات بسهولة لهم وتنمية قدراتهم على نطق الكلمات.

وبالرسم يستطيع الطفل حتى شديد الإعاقة أن يتمتع ويبدع، والأهم أن يعبر عما يدور بداخله.

أما ممارسة الرياضة فهى جزء هام وحيوى فى حياتهم حيث تعطيهم اللياقة البدنية التى هم فى أشد الحاجة إليها وتعلمهم روح التعاون عندما يلعبون معا، كما تمتص طاقتهم الجسدية وتمنحهم التمتع بالحياة.

* * *

مع مرور السنين إكتسب تامر مهارات جديدة وصار أكثر تكيفا وإدراكا لما حوله. هذا النمو جاء بطيئا وغالبا غير ملحوظ، وفى بعض الأحيان كان يتوقف تماما لفترة من الزمن ويصيبنى اليأس لظنى أن هذا هو نهاية المطاف فى طريق التقدم، وفجأة أجده يقفز إلى الأمام.

فلقد إنتابت تامر طفرة كبيرة من النضوج وهو فى الخامسة والعشرين من عمره، إزداد فهما للحياة

فى مرحلة التأهيل المهنى ١٩٨١

وأصبحت مشاعره أكثر حساسية، ويريد ويصر أن يلتزم ببعض المسئوليات. أصبح يجلس فى البيت يلعب مثلا «بازل» «Puzzle» (الصور المقسمة إلى قطع صغيرة جدا) ويضع القطع بجوار بعضها بمهارة شديدة حتى أن مستواه وصل لتركيب صورة أكثر من ألف قطعة... وهو أيضا يلعب «الليجو» «Lego» و«الميكانو» «Mecano» ويبنى عمارات وفيلات وكبارى أو يقرأ (بطريقته) لمدد طويلة وأشعر أنه يتمتع بهذا الوقت وهو راض تماما .

أتذكر فى هذه المناسبة انى كنت اشجع هذه الهوايات عنده وذلك بانى كنت أستقطع حوالى ربع ساعة فقط من وقتى يوميا لأجلس معه وألعب معه بهذه الألعاب وكانت فى البداية ألعاب مبسطة للغاية. وفى بادىء الأمر كان إهتمام تامر هو إستحواذه علىّ وليس اللعبة التى أحاول أن يمارسها ولكن مع الوقت بدأت الألعاب هى التى تستحوذ عليه.

فى التأهيل تعلم تامر حب القراءة بمعنى الفرجة على الصور وفهمها وتصفح المجلات والكتب ذات

القصص المسلسلة المصورة، وكثيرا ما يقول «أنا أريد أن أشترى كتابا».. هو طبعا لا يعرف كيف يقرأ لكنه يفسر لنفسه الصور ويفهم ما يفهم منها وهو للآن يحب الكتاب ولا يمزقه أو يوسخه أبدا وعندما يحضر إلى القاهرة يطلب شراء كتب ومجلات ليتسلى بها بعد عملية إنتقاء كبيرة، وأحيانا يطلب كتاب غالى الثمن فأقول له: «لا... ده غالى جدا علىّ يا تامر...تعالى نختار كتاب تانى.. شوف هنا فيه كتير حلوين» وأحيانا ينتقى نوعا من الشكولاتة غالية الثمن جدا فأقول له: «لا يا تامر ديه غالية جدا... إنتقى نوعا آخر، هذه بالبندق وطعمها لذيذ». المهم أننى أكلمه كشخص يفهم ويقدر حتى أنمى إدراكه. ومع التكرار.. ومع السنوات أصبح يفهم، لأن أولادنا غالبا لا يفهمون الحساب ولا يقدرون النقود، قليل من المعاقين ذهنيا من يعرفون قيمة النقود.. غالبا هذا المركز من المخ مصاب لديهم، قد يقرأون وقد يكتبون ويؤدون أشياء وأشياء إلا أنهم فى مسألة النقود لا يميزون بين الخمسة قروش والعشرين جنيها بأى حال من الأحوال حتى بعد التمرين الطويل.

الجدير بالذكر هنا أننا قد حرصنا أن نعطى لتامر من الصغر الفرصة أن يختار ما يفضله من أشياء أو نشاط. «تحب أن تلبس هذا القميص أم ذلك؟ تحب تلعب بالعربة أم ترسم؟». فى البداية كان لا يعرف كيف يختار وكان علينا ان نوحى له بالاختيار ومع التكرار تعلم وبهذه الطريقة شجعنا تامر أن يشعر بكيانه ويكون له رأى فيما يريد.

لكن الأمور لا تمضى دائما بهدوء ويسر.....، ان شراء ملابس لتامر مثلا عملية مرهقة للغاية وتسبب لى الحرج الشديد فى المحلات. إنه يعترض إذا لزم الأمر أن يرتدى من الشئ الذى نريد أن نشتريه له إثنين أو ثلاث قطع حتى نجد المناسب له. يعبر عن إعتراضه هذا بنرفزة وشخط ونطر وتمسكه بشراء أى قطعة يرتديها لينتهى من هذه المحنة. البائعون يلتفون حولنا وكلٌ منهم إما يحاول تهدئته بلا جدوى، إما يوجه لى النصيحة، إما يقنعنى أن أشترى القطعة الغير مناسبة له مادام تامر يرغبها، وأنا أقف بينهم فى شدة الحرج من هذه المناقشات.

ولكن إذا اصطحبته «نيفين» إبنة خالته العزيزة فهو يلبس ويخلع مئة مرة بلا كلل ولا ملل وكله لطف وظرف وتعاون.

طبيعى حقاً أن يظهر تامر كل جوانبه الحسنة أمام إبنة خالته الشابة الجميلة... ولكن أين أجد نيفين كلما أحتاج شراء ملابس له...؟

أن مظهر تامر العادى والذى لا يدل على إعاقة ذهنية من الوهلة الأولى يسبب لى أحياناً حرجاً وألماً لأن الناس تنتقد تصرفاته على أنه شاب مدلل ، ولكنى لا أغضب منهم لأنهم لا يعلمون.

* * *

مازلت أذكر أن عثمان مع التقدم فى السن والمرض قلت حركته... أصبح لا طاقة له على الحركة السابقة وكثيرا ما قال لى: «خير ما فعلت أنك صممت على أن تكملى تربية تامر فى بريستول، إننى أستطيع اليوم أن أجلس وأرتاح وأتمتع به دون أن أجرى وراءه

فى كل مكان لأنه يستطيع الآن أن يستعمل عقله ويسلى نفسه». كان تامر فى ذلك الوقت عمره ثلاث وعشرون سنة وعمره الفكرى لا يجاوز السبع سنوات.

تعلق تامر بوالده كان شديدا جدا... فى نفس الوقت كان تامر يعى تماما أنه مدلل لأنه وحيده.. ولكن حين تعب والده أدرك هذا وتوقف عن مطالبه الكثيرة بل وبدأ يساعده.. والشئ الطريف أنه كان يعامل والده على أنه الأصغر الذى يجب أن يرعاه، وكنت أراقبه وأنا سعيدة. وعرفت حين ذاك أن فكر أولادنا يظل هو الفكر المحدود ولكن القدرات والعواطف هى التى تنضج. إنها عملية معقدة ومحيرة جدا!!

المهم أنه بدأ يتصرف بنضج ويبدى حنانا تجاه والده.. أذكر حينما كان والده مريضا جدا ولم يستطع أن يوصله إلى المطار وخاصة فى المرتين الآخيرتين وكان زوج أختى يذهب به وأنا واقفة فى الشرفة أودعه، أذكر أنه فى آخر مرة رفع وجهه وقال لى: «خدى بالك من

بابا، كانت عبارته غير منتظرة لكن فى الواقع أولادنا بين الحين والحين يفاجئونا بأشياء أو أقوال لم نكن نتوقعها قط ولم نكن ننتظرها فى يوم من الأيام.

كنت أعلم أن والده مريض جدا وأنه يعيش أيامه الأخيرة لأن مرضه جعلنى أتوقع هذا، وكنت فى نفس الوقت «شايلة هم» تامر لأنه تأثر فى الماضى لوفاة جده كثيرا. وحين توفى والده كان كل تفكيرى منحصرا فى تامر وماذا سيحدث له؟ أنا نفسى ماذا سأفعل دون عثمان مع تامر؟ هل سأستطيع أن أحمل العبء وحدى؟ وأسأل نفسى هل سيكتفى بى فقط؟ لأن عثمان كان بمثابة المثل الأعلى له والرفيق فى كل شئ.. ماذا سيحدث له عاطفيا حين يأتى ولا يجد أباه؟ وكيف سيتصرف؟؟.

فاتصلت بالمسؤولين فى البيت الذى يقيم فيه مع الشباب الآخرين وقلت لهم: «أنا محتارة هل تقولون أنتم له ويأتى إلىّ وهو يعلم بالخبر؟ أم يحضر هنا وأنا أقول

له فسيجد فىّ الصدر الحنون؟!! وبعد فترة قصيرة كتبوا لى بأنهم أخبروه وسيأتى إلى هنا وهو يعلم بوفاة والده .

وذهبت إلى المطار وسألنى: «بابا فى البيت؟» فوجئت قليلا وبدأت أشك... هل فهم ما أرادوا أن يخبروه به هناك؟ وأجبت: «لا بابا موش فى البيت» ثم بدأ يتكلم (بطريقته) عن الطائرة ويتكلم فى كل شئ إلا عن والده . ووصلنا المنزل وأنا خائفة ولم أبادره أنا أيضا بأى حديث عن والده، وفى صبيحة اليوم التالى قال لى: «بابا راح السما عند ربنا... هو سعيد قوى هناك... هو كان مريض...» .

وفى كل الأيام التالية كان يردد نفس هذه العبارات كأنه يريد أن يقنع نفسه بذلك.

ولما كان يرانى أحيانا أبكى لأن الوفاة كانت قريبة جدا كان يقول لى أيضا: «ماما متعيطيش... بابا يزعل قوى... هو شايف... هو سعيد... متعيطيش» .

ولقــد فــهــمت أن هذا الكلام هو مــا قــيل له فى بريستول ثم قال لى بعد فترة أنه بكى وأن أصحابه فى الدار بكوا معه.. وأنا طبعا إرتحت ارتياحا شديدا لأنه تلقى الحدث بهذه الطريقة.. والشئ الغريب أنه بعد ذلك ولليوم دائما يتذكر والده: «بابا كان يعمل كذا... بابا كان يحب كذا» كأن أباه مازال معنا، وفى أحيان كثيرة حين يأتى من السفر يقول لى: «مـامـا.. أنا أبكى.. بابا» أنا أبكى لا تعنى البكاء بالدموع ولكنه يقصد بها أنه حزين أو ضائق.. وحين يرانى حزينة يربت علىّ ويسألنى: «أنت بخير؟.. أنت بتفكرى فى بابا؟ بابا سعيد فى السماء».

أذكر حينما كنت أطلب منه قبل ذلك أن يحمل الحقيبة الثقيلة مثلا كان علىّ أن ألح حتى يحملها لكن بعد وفاة والده أصبح لا يرفض مطلقا أن يساعدنى إنما يحمل كل شئ عنى، فقد بدأت تصرفاته تصبح تصرفات مسئولة.

وهذا ما أعتبره النضج وأنا بدورى أقول له: «بابا راح... أنت رجل البيت... لازم تأخذ بالك منى زى بابا... أنت رجل كبير دلوقت».

توفيت والدتى بعد عام من وفاة عثمان فقال لى: «... جدى راح.. بابا راح... ستو راح.. أنت وأنا».. وهو يعنى أنه لم يبقى غيرك وغيرى وعلى هذا الأساس أصبح تعلقه بى أشد وأعمق، شعرت بعدها أنه كبر وأنه أصبح رجلا وأنه سند لى. بل لم أكن أحلم ابدا أنه سيكون فى يوم من الأيام هكذا.

هذا الشاب بكل إنسانيته ومشاعره الرقيقة الفياضة، وبكل إحساسه بالمسئولية الآن، هو نفس الشاب الذى لا يتكلم إلا كلمات محدودة جدا ولا يقرأ ولا يكتب ولا يعرف شئ عن الحساب، ولا يعرف قيمة النقود ولا قيمة الوقت إلا الصباح والمساء وباكر. ولا يستطيع أن يميز الألوان ولا ينقل رسالة إلا البسيطة منها جدا، ومع ذلك، هذا الشاب بكل هذه السلبيات يتمتع بإيجابيات وقدرات

لا حصر لها، إنه يتمتع بشخصية متميزة ومحبوبة، تثق فى نفسها وتحاول دائما إثبات ذاتها وقيمتها فى الحياة.

* * *

ونأتى إلى الموضوع الذى نجد صعوبة فى مناقشته فى بلادنا العربية وهى النواحى الجنسية فى حياتنا... حتى مع أولادنا العاديين عندما يصلون إلى سن المراهقة، فيشعر المراهق بأحاسيس وتصله معلومات يود أن يستفسر عنها ولكن حياءه وعاداتنا تمنعه، فيلتقطها من الأصحاب والمجلات وما يسمعه من حوله.

أما بالنسبة للإنسان المتخلف فلديه نفس المشاعر ولكنه لا يدرك معناها أو ما الذى يتفاعل بداخله وبما أنه غير قادر على أن يفهم أو يلتقط معلومات أو مفهوما واضحا عن الجنس من مجلات وأصدقاء، فلابد من قيام الأهل أو مدرس التربية الخاصة بهذه المهمة وهذا ما أفهمناه لدفعة المدرسين التى تخرجت عام ١٩٩٢ من «مركز دراسات التربية الخاصة» التابعة لـ «جمعية الحق

فى الحياة»، حيث ناقشنا معهم المشاكل البيولوجية بالنسبة للمعاق وقررنا أنها ولابد أن تصبح جزءا من مقرر التربية الخاصة: علينا أن نعلم الطفل منذ الصغر كيف يدق الباب قبل أن يدخل على أبيه أو أمه... وهذا بالتالى ينطبق على أى حجرة مغلقة... وأن يلبس ملابسه بالكامل عند الخروج من دورة المياه... وأن لا يمس أعضاء جسمه علنا.. (وهذه ظاهرة شائعة فى كثير من المتخلفين لأنهم ليس لديهم التقدير الكافى والذى يكون فطريا عند العادى) وكل هذه العادات السليمة تأتى بالهدوء الشديد والتكرار المستمر ومن الصغر حتى لا تتفاقم المشاكل عند الكبر.

فى مدرسة الجمعية ليس لدينا مشاكل جنسية لأن الأولاد والبنات دائما يمارسون نشاطا ما وتحت رقابة وتوجيه مستمر وكبروا سويا فتعودوا على وجودهما الفعلى متجاورين... وهناك سلوك غرسناه فيهم وهو عدم تبادل القبلات والأحضان إلا فى حدود ضيقة مثلا عند الالتقاء بعد أجازة طويلة أو للتهنئة «أنت كبرت

خـلاص مش كل واحـد تبـوسـه» لأنهم لن يسـتطيـعـوا التفريق بين من يقبلونه أو يحتضونه وبين من يسلمون عليه فقط.

الشاب المعاق لا يكون مدركا ما هى الحياة الجنسية وما هو الزواج بالضبط إلا إذا كانت إعاقته خفيفة جدا. تامر مثلا ينتقى البنت الحلوة ويقول لى بلغته: «أنا باحب البنت دى» وهو لا يقـصـد الحب بالمعنى الجنسى ولكنه يعبر عن إستحسان أو انجذاب لها، إنه يردد عبارة الحب والزواج ولكن ليس بمضمونها الحقيقى والكامل. يجوز جدا أن يقول المعاق «أنا عاوز أتزوج أو أننى أحب» وكل الشـبــاب يمرون بمسـألة الحب هذه لأنهـا عــاطفــة طبيعية... ولكن إذا حدث أن سلك سلوكا معيبا كأن يقبل على فتاة لتقبيلها أو ملامستها فلا يجب عندئذ الثورة عليـه، لأن هؤلاء الشبـاب بالتوجيـه المبسط والتكرار تجدهم يمتثلون، لأن لديهم ثقة فيمن يعلمهم إذا أحبوه فيأخذون كلامه قضية مسلما بها.

وعلينا ألا نرفض ما هو طبيعى، ولا نصعد الأمور ونجعل منها مشكلة كبيرة، لأنهم مثل أى شاب عادى أو فتاة عادية، لابد من المرور فى التجارب الخاطئة والصحيحة.

ومن الخطأ الجسيم أن نعطى أولادنا العقاقير لإخماد الطبيعة لأنها تخمد تفكيره أيضا، وهو ما ترفضه البلاد المتقدمة لأنهم يعتبرون هذا العمل هدما وإهدارا لشخصية وإنسانية المعاق، إنهم يعالجون المشكلة بأسلوب تربوى وليس كيميائيا يعتمد على العقاقير، لدرجة أنهم فى بعض الحالات الشديدة يعلمونهم ممارسة التفريغ بالطريقة الصحية إن لم يكن تصريف هذه الطاقة ممكنة عن طريق الرياضة أو الأنشطة المختلفة، وكل هذا يتم بهدوء وتفهم.

أما عن الزواج بالنسبة للمعاق ذهنيا فهو يعتبر مأساة حقيقية لأن الزواج مسئولية وإدراك وتعامل وإنجاب وتربية .... فإذا تزوج... فمن الذى سيرعاه هو

وأسرته، وهو غير قادر على رعاية نفسه؟ وإلى متى سيرعاهم الوالدان؟!!

ولكن مؤخرا تطوعت بعض الجمعيات الخيرية فى الخارج برعاية المتزوجين المعاقين إعاقة خفيفة، فهم يعيشون تحت رعايتهم ويساعدونهم فى تدبير أمورهم وحساباتهم، وبما ان الجمعية دائمة الوجود فهى تستطيع أن ترعاهم على المدى الطويل، وذلك على أساس أن الجمعية تقتنع بأن هذيين المعاقين هم أنفسهم الذين يريدان هذا الزواج بشدة وأنهم على مستوى لا بأس به من القدرة والمسئولية.

* * *

يحضر إلى الجمعية آباء بغرض أخذ النصيحة والمشورة والكثير منهم يتشككون فى سلامة قرارهم بأن يلحقوا أطفالهم المعاقين إعاقة خفيفة بمدرسة تربية خاصة ويبوحون لى بقلقهم وتساؤلاتهم فى هذا الموضوع.

وأقـول لهم دائمـا إن من الظلم أن نطالب الطفل المعاق أن يجارى الطفل العادى فى الفـصل. إن فـرق القدرات متباعد جدا والمنافسة غير عادلة، وفشله المستمر فى متابعة ما يدور فى الفصل يسبب له إحباطات تؤثر فى نفسيته وبالتالى على سلوكياته. وإذا كان الطفل المتخلف قد تابع زملاءه فى السنين القليلة الأولى فسرعان ما يتخلف عن الباقين ويشعر بالعزلة ثم فقدان الثقة فى النفس. إن الإنسان مهما صغر أو كبر يحتاج أن يثبت ذاته، وهو يرى نفسه كما يراه الآخرون: إذا نظروا إليه باستحسان رضى عن نفسه وتقدم فى الحياة بثقة، وإذا نظروا إليه كإنسان فاشل أو محدود القدرة يحس بخيبة أمل فى نفسه ويشعر باليأس.

معاشرته لزملاء قدراتهم تتساوى مع قدراته وتفكيرهم وإهتمامهم مماثل بعضهم ببعض يجعله يشعر أنه يعيش فى عالم هو قادر على إثبات ذاته فيه. وحينما يكون فى الفصل وتقدم المعلومات له بأسلوب يمكن أن يستوعبه فسيتعلم وينمى قدراته، بل المنافسة العادلة

ستشجعه على التفوق وحينما يعتقد أولياء الأمور أنه من الأفضل أن يستمر الابن فى فصل الأسوياء حتى يتعلم منهم ويكتسب مهارات منهم، فهم يتعلقون بأوهام كاذبة لأن الطفل المتخلف مشكلته الأساسية هى عدم قدرته على إكتساب المعلومة سواء بالتصرف التلقائى أو التقليد - ولزاما أن يتعلمها بطرق خاصة.

وأخيرا يمكن أن ألخص القول بأننا نحاول جاهدين أن نساعد الأهالى ونرشدهم كيف يتصرفون مع أولادهم بالطريقة السليمة. وفى الحقيقة إن كل معاق ذهنيا هو حالة خاصة ومنفردة ولا يوجد قاعدة فى الأسلوب نستطيع أن نعممها على الجميع لأن كل معاق له شخصيته الخاصة وظروفه العائلية والظروف المحيطة به... إنها إجتهادات... ولكن مبنية على قواعد أساسية وخبرات ودراسات.

الختـــــام

السنوات تمضى وأنا أتقدم فى العمـر، أعيش فى شقتى الصغيرة مع ذكرياتى عن أيام وجود عثمان ووالدتى، أيام أن كـان هذا البـيت مليـئـا بالحـيـاة والبهجـة.... الآن أعيش فى إنتظار مجئ تامر مرتين فى العام، يقضى معى فى كل مرة شهرين يمران كلمح البصر... ومجيئه بهذا النظام قد عمل خصيصا له لأن أسرته تعيش بعيدة عنه فى مصر ولا يمكنه زيارتها فى المناسبات مثل باقى رفاقه.

دار الإقامـة الدائمـة... التى قدر الله له أن يعيش فيها فى بريستول مقامة على عشرة أفدنة فى إحدى ضواحى بريستول ويقيم فى الدار عشرون شابا وشابة إقامة دائمة. والمبنى عبارة عن سراى قديمة صغيرة

تحول إلى دار تضم هذه المجموعة مع المشرفين، وكل فرد منهم يشغل حجرة نوم خاصة، وقسم نوم الشبان منفصل عن قسم نوم الشابات تماما، إلا أن حجرات المعيشة مختلطة، والجو العام فى هذا المكان تغلب عليه الروح الأسرية... حجرات الجلوس مريحة ولمسات الجمال محسوسة من ستائر ولوحات وأوانى الزهور.... وللدار حديقة فسيحة تحيط بالمبنى، وهناك بعض المساحات المزروعة بأنواع من الخضار والفاكهة وأخرى لتربية الشتلات وثالثة لتربية الطيور وبعض الخراف والماعز، وعلى جانب آخر توجد ورشة نجارة وأيضا ورشة خزف وأعمال فنية، ويوجد كذلك محل لبيع منتجات الورشتين والمنتجات الزراعية للجمهور.. وخارج الدار يوجد ناد خاص لهواة رياضة ركوب الخيل ويسمح لبعض نزلاء الدار المعاقين لممارسة هذه الرياضة كما أن بعضا من شباب الدار يعمل هناك حسب مدى إستعداده وقدراته.

وهناك سيارة (Mini - Bus) تخص الدار وتستخدم فى نقل المقيمين به إلى القرية القريبة أو إلى المدينة

فى دار الإقامة الدائمة



تامر وزميلته يعتنيان بالماعز ١٩٨٥



أمام ورشة النجارة بزى العمل ١٩٩٠

المجاورة لقضاء بعض المشتروات أو للترفيه، والشئ الذى يستحق الذكر، أن من يقود هذا الأتوبيس الصغير هم المشرفون أنفسهم. ففى مثل هذه البلاد المتقدمة لا توجد فروق فى العمل فالكل متعاون ويعمل فى أى موقع وذلك لتوفير المال. إنهم يعيشون فى هذا المكان كأفراد فى عائلة كبيرة، فى الصباح العمل حتى الرابعة وفى المساء وقت للإسترخاء يلعبون فيه الكرة أو يستمعون جماعيا لأحد المشرفين وهو يقرأ لهم فصلا من قصة روائية مثل جين اير Jane Eyre أو يشاهدون التلفزيون أو يخرجون لإحضار بعض المشتروات أو للزيارات، وفى أجازة نهاية الأسبوع يذهبون فى مجموعات صغيرة إلى السينما فى المدينة أو لمشاهدة معرض من المعارض أو تناول وجبة فى مطعم. وعندما يأتى الصيف يذهبون إلى الشاطئ أو إلى إحدى المدن السياحية وغالبا ما يقوم أهل الخير بالتبرع بتلك النفقات الإضافية.

إن عمل تامر هناك ينقسم بين ورشة النجارة والزراعة وذلك لأنه لا يستطيع أن يكون له مهنة خاصة

وهو يدخر أجر عمله فى دفتر توفير يسحب منه ما يلزمه من مصروف جيب أو شراء كماليات (منها الهدايا الجميلة لى فى المناسبات المختلفة).

* * *

ويبدأ الآباء فى البحث عن دار للإقامة الدائمة لأبنائهم عندما يصل أولادهم إلى مرحلة بداية التأهيل المهنى وهذه المرحلة تأتى بعد إنتهاء الدراسة الخاصة الأولى حتى إذا انتهوا من مرحلة التأهيل المهنى ينتقلون إلى دار الإقامة هذه ويبدأون ممارسة حياة خاصة بهم ومستقلة عن أهلهم. إن هذا البحث يبدأ فى وقت مبكر حتى يطمئن الأهل على ابنهم أو ابنتهم قبل أن تلحق بهم الشيخوخة أو المرض أو الموت.

وعادة قائمة الانتظار طويلة فى هذه الديار والفرصة تأتى عندما تقرر دار قائمة فعلا أن تتوسع أو تنشئ ملحقا جديدا أو عند تأسيس مشروع جديد يقام من بعض الأهالى وأصحاب القلوب الخيرة...

لقـد بدأت في البـحث عن دار ترعى تامـر قـبل التحاقه بقسم التأهيل وكان له من العمر خمس عشرة سنة وظللت أبحث حتى وفقنى الله وكان تامر له من العمر اثنان وعشرون عاما، لأنه لم يفارقنى الإحساس لحظة واحدة بأننا لن نبقى له طوال العمر، كما أن إختيه نيفين ومايرا المتزوجتين وتعيشان بالخارج لا يمكنهما أن يتحملا مسئوليته برغم مشاعرهم الحنونة تجاهه، وكنت أعلم كـذلك أن فى بلادنا لا توجـد مـثل هذه البيوت التى تكفل له العيش مستقبلا فى رعاية واعية تحفظ له كرامته كإنسان وكمواطن له حقوق.

أما بالنسبة للأمل الذى كان لدينا أن يقضى تامر باقى حياته بالمزرعة التى إشتريناها له فقد وضح لنا بعد فترة وجيزة أن هذا الأمل لا يمكن تحقيقه لأن تامرا سيكون غير قادر على تدبير أمورها وأموره بها وأنه بحاجة دائما إلى شخص يرعاه، وبطبيعة الحال إن هذا الشخص يصعب وجوده وخاصة طوال حياته.

قبل أن أعثر على هذه الدار الريفية التى يعيش فيها تامر الآن فى بريستول سعيت أن أجد له مكانا فى جمعية صغيرة تشرف على بيت إسمة «دار جوناثان» Jonathan House فى ضاحية هادئة أيضا فى بريستول عبارة عن منزل يضم سبعة أفراد معاقين بالإضافة للمشرفين وقد أمضيت معهم يوما كاملا لأعيش التجربة عمليا، ثلاثة أفراد منهم كانوا يعملون فى أحد المطاعم القريبة وإثنان آخران كانا يعملان فى ورشة على صلة بهذه الجمعية وإثنان آخران كانت قدراتهما تكفى فقط للمساعدة فى الدار. أذكر أن أحدهما كان يرفض الخروج من باب هذه الدار نهائيا لشعوره بقدر كبير من الخوف من المجهول فى الخارج... وحينما سألت عنه بعد بضع سنوات علمت أنه تغلب تدريجيا على هذا الخوف بمساعدة المشرفين والآن يتجول بحرية خارج الدار.....

فى رحلة بحثى هذه أذكر أننى وبعض الآباء كنا قد عرضنا على مجلس إدارة المشروع الذى يشرف على

دار «جوناثان» أن نشترى المنزل المجاور - الذى كان معروضا للبيع - وأن نضم تامر وستة آخرين من رفاقه للإقامة الدائمة وتباحثنا لمدة عام كامل مع الإدارة ولكن بعد الدراسة الوفيرة إعتذر مجلس الإدارة لعدم قدرته على إضافة مسئولية أكبر يتحملونها... وضاع حلمى فى أن أعمل «دار تامر» على غرار «دار جوناثان» أدراج الرياح.

أعود وأكرر أننى أعيش فى إنتظار دائم لزيارة تامر، فهو كل ما لى فى هذه الدنيا «أنا وأنت يا ماما» كما قالها لى عندما توفى والده ووالدتى.

أنه يملأ البيت بحضوره وحنانه علىّ وفرحته بكل لفته صغيرة منى أو من أصدقائى له... لقد عينته «ضابطا للأمن» فى بيتنا وهو يأخذ هذه المسئولية بجدية ويحرص على قفل الأبواب والنوافذ عند الخروج أو النوم ويقفل محبس المياه والكهرباء والغاز عند السفر. إنه يرتب حجرته وينظم سريره ويخيط زرار قميصه

ويساعدنى فى المطبخ... يعد الإفطار ويغسل الأطباق حين أكون متعبة... وأحلى سلطة آكلها من صنع يديه.. إنه أيضا يقوم باصلاح «ستارة» مخلوعة أو تغيير «لمبة» محروقة.. يده بيدى دائما.

وأتذكر ما حدث منذ سنة تقريبا وكان تامر فى أجازة يمضيها معى. وذات صباح كنت أقود سيارتى ذاهبة إلى مركز الجمعية وبجانبى تامر. فجأة خرجت عربة مسرعة من شارع جانبى وكان التصادم بيننا أكيدا لولا رد فعل تامر. إنه فى لمح البصر شد فرملة اليد ليوقف سيارتنا على بعد نصف متر فقط من مقدمة العربة المندفعة.

بعد مرور لحظات الفزع الأولى أدركت أن تامر الذى كنت أعتقد أنه جالس بجانبى مستسلما لقيادتى كان يقظا لقيادتى وملاحظا كل تفاصيل القيادة وأنه أنقذنا من حادث مروع فى الوقت المناسب بالطريقة المناسبة.

أما هو فكانت علامات الفخر والسعادة على ملامحه وهو يقول لى «أنا أوقفت العربة يا أمى... أنا أوقفت العربة!!».

للمرة المئة أذهلنى تامر بتصرف كنت لا أنتظره منه أبداً... ابداً. من يومها أخذ على عاتقه أن يحذرنى من قدوم سيارات مسرعة من اليمين أو الشمال. وكما قلت فهو ضابط الأمن فى المنزل.... وفى الخارج أيضا.

أحب أن أخذ رأى تامر فى ملبسى فإن له ذوقا رفيعا وهو مثل والده يلحظ أى تغيير بى أو رداء جديد لى ويبدى إستحسانه أو العكس. له بعض الأصدقاء يسألون عنه ويدعونه لتمضية بعض الوقت عندهم، وهو يحضر لهم ولى هدايا عند وصوله من صنع يديه... قطع فنية من الخزف أو الخشب. أصدقاؤه أناس أسوياء يكبرونه سنا متعاطفون معه ويحبونه. انه يسميهم أصدقاءه (وهم معارف وأصدقاء لى أيضا... كان تامر السبب الرئيسى فى تعارفنا).

إنه يذهب لخالته ولأصدقائه بمفرده لأنهما يسكنان على مقربة منى وقد تعلم تامر كيف يعبر الشارع بحذر شديد... المنطقة التى نسكن فيها كثيرة المفارق ويلزمها قوة ملاحظة وتحرك سريع وقد عودت تامر من قبل على العبور معى أولا ثم طلبت منه أن يعبر بى، ولما اطمأننت على سلامة تقديره سمحت له بالذهاب منفردا، فقد أقف لأراقبه من الشرفة وكأن وقفتى هذه ستسلمه من أى أذى.

لا يمكن أن أصف مدى إحساس تامر بالفخر والإعتزاز كلما خرج منفردا ،زى كل الناس، ولا يمكن أن أصف خوفى وقلقى الشديد عليه حتى يصل أو يعود، وخاصة وأنا أعرف أنه عاجز عن الكلام... لقد عودت نفسى على تحمل هذا القلق حتى أعطيه الفرصة أن يشعر بالإستقلالية لأنه عادة ما يحرم الآباء أولادهم المعاقين من الإعتماد على النفس والإحساس بذلك لشدة حمايتهم وخوفهم عليهم.

كان علىّ أيضا أن أتغلب على خوفى الشديد من ترك تامر بمفرده فى المنزل. لحين وفاة والدتى كان المنزل عامرا والمشكلة غير واردة لكنه الآن يرفض أحيانا أن يصحبنى عندما أخرج لحضور إجتماع أو لمشتروات أو زيارة لا تهمه، ويطلب منى أن أتركه بالمنزل. أدركت أن له الحق فى ألا أعامله كأنه حقيبة فى يدى وأن أحترم رغبته كل حين فى الراحة أو الإستمرار فى ممارسة نشاط هو منهمك فيه.

برغم خوفى الشديد جدا عليه مرنته ومرنت نفسى على تركه. اننى أتركه بشرط ألا يفتح الباب لأحد ولا يدخل أحدا وأفهمته خطورة هذا التصرف وطبعا اعتنيت أن يكون شرحى واضحا وبكل التعبيرات الصوتية والتمثيلية الخ.. فى بادئ الأمر تركته ربع ساعة فقط ثم زادت المدة مع إكتسابى الثقة فى إذعانه لتعليماتى. ومع كل خروج بمفردى أكرر له الشرح حتى تتأكد المعلومة فى ذهنه.

أصبح تامر يردد من نفسه «أنا أفتح باب لأ... أنا أدخل رجلا لأ، كلما أراد أن يمكث فى البيت ولا يخرج معى... وأنا أضحك طبعا. لكن قبل ذهابى أتأكد أنه يقفل محبس الغاز أمامى ويتمم على البطارية التى تضيئ فوريا عندما ينقطع النور. وفكرت ألا أغلق باب الشقة بالمفتاح حتى يتسنى لتامر الخروج إذا ما حدث ظرف طارئ كحريق أو إنفجار مثلا ثم أتصل به تليفونيا كل حين لأشعره بالآمان. وهكذا وجدنا حلا سويا لمشكلة هامة فى حياتنا، وبذلك أكون قد أعددته أن لا يصبح عبئا ثقيلا على من سيستضيفه مستقبلا.

لكن أحب أن أضيف هنا إننى دائما لا أشعر بالطمأنينة التامة، وأبذل جهدى فى أن أجعل غيابى فى أضيق الحدود. وحينما أعود أجد تامراً غالبا ينتظرنى فى الشرفة وهو يلوح لى بكل فرح وترحيب.

* * *

عندما كان تامر صغيرا كنت أفكر بقلق شديد عن الوقت الذى سيكبر فيه وستبدو أفعاله الطفولية بوضوح

أمام الآخرين... أمام المجتمع.... وكنت أرقب بخوف هذا المستقبل، كيف سيبدو تامر أمامهم؟ كيف سأواجه هذا المجتمع معه؟ لأن الأفعال والتصرفات الغريبة يمكن أن تمر أو تقبل من طفل ولكن من إنسان بالغ كبير الحجم والسن فالأمر يختلف. واليوم تامر أصبح له من العمر واحد وثلاثون عاماً، وأيقنت أنه كان عليّ أن أثق أكثر فى رحمة الله علينا وفى عنايته بنا، لأن تامر رغم العمر إحتفظ بشخصيته اللطيفه ووجه المشرق دائماً، إنه يجذب القلوب فى كل مكان رغم أنه كثيراً ما يتصرف بعصبية لامبرر لها وطفولية فى غير مكانها، لكن هذا الواقع تعلمت أن أتقبله وبالتالى يتقبله كل من حولنا بكل حب وتفهم.

الشئ الذى لم أكن أتوقعه أن يجئ اليوم الذى أستمتع فيه بصحبة تامر فى أفسار نقوم بها سويا فى أجازته... فى الماضى كان إصطحابه معنا مزيج من المسئولية والشعور بالعبء - ولو أن هذا العبء كان عزيزاً علينا وكنا راضين به - ولكن جاء اليوم الذى أصبحت أشعر فيه معه بالألفة وتوافق الخواطر والمتعة



فى حديقة المريلاند مع صديقته الحميمة زينب ١٩٩٢



تامر وأنا ١٩٩٤

المشتركة فى أشياء كثيرة كالمناظر الطبيعية أو الموسيقى الجذابة، أو المكان الجميل أو الصحبة الممتعة، إن هذا الواقع الذى أحسه الآن وأعيشه كان أبعد ما يكون عن تصورى.... واليوم وأنا أتأمل كل هذا وأنظر لتامر وما وصل إليه، أشكر الله وأحس بالفخر بهذا الإبن الذى أراد الله أن يعطيه الحياة ويوفقنى فى أن أوفر له ما استطعت من احتياجات معنوية وعلمية ومادية ليستطيع أن يواجه الحياة ويتمتع بها رغم إعاقته الشديدة.

وكثيرا ما أسرح بخاطرى وأتذكر المناقشات العديدة السابقة مع بعض أفراد العائلة والأصدقاء الذين كانوا يحاولون إقناعنا بأن الأفضل أن نوفر تلك المبالغ الطائلة التى تنفق على تأهيل تامر لنتركها له لتأمين مستقبله... وكانت دائماً وجهة نظرنا أن هذا المال لن يكون ذا فائدة له إذا بقى تامر لاحول ولا قوة له، يقاسى من طاقاته الغير مستغلة، لا يعرف للحياة معنى.. يعيش عالة على الغير وعبئا ثقيلاً ويسبب المشاكل الدائمة لمن يرعاه.. وفى هذه الحالة سيحتفظون بتامر فقط لأجل ماله الذى كدسناه له.

وهذا الرأى نفسه كنا قد ناقشناه من قبل مع نيڤين ومايرا وكانتا مقتنعتين تماما ومستعدتين لكل تضحية مهما بلغت لنوفر لتامر أحسن فرصة ليحيا حياة كريمة، وهكذا شجعنا بناتنا أن يشتركوا فى المسئولية تجاه تامر وأعطانى الله الشعور بالفرح والإمتنان حينما لمست الموقف الكريم لأختيه.

* * *

إنى أذهب بانتظام إلى «جمعية الحق فى الحياة» التى وهبت لها الثلاثة عشر سنة الماضية من عمرى لتنميتها مع أخواتى فى الكفاح ـ كانت بالنسبة لى ولهم سنوات كفاح بحق حتى تثبت الجمعية أقدامها وتصبح كما كنا نحلم به... مركز يشع بالحب والتفهم فى التعامل لأطفالنا. أن رسالة التأهيل فيه مبنية على العلم والتقدم المستمر ومسايرة الطرق الحديثة لمساعدة أولادنا للنمو ومساعدة أسرهم على فهمهم وكيفية التعامل معهم، بل مساعدة كل مجموعة تريد أن تنشئ مشروع لرعاية

المعـاقين وذلك بالإرشـاد ومـشـاركـة التـجـارب التى اكتسبناها وتقديم الفنيين المتخرجين من معهدنا.

وعندمـا تجئ لنا الأسـر طلبـا لإلحـاق أطفـالـهم فى الجمعية نضطر آسفين للإعتذار لعدم إمكانياتنا فى قبول مزيد من الأطفال، ونشعر فى كل مرة بالألم من داخلنا وذلك لما نعرفه تماما من خلال تجربتنا الشخصية عن مدى مشاعر الحيرة والإحباط التى يواجهونها.. وغالبا ما يشكو الآباء عدم وجود مكان لأطفالهم لندرة المراكز المتـخـصـصـة فى بلادنا، لذلك ننصح ونشـجع أوليـاء الأمـور أن تتـجـمع مـثلنا وتنشئ مـركـزا صـغـيـرا يضم أطفالهم وأطفال غيرهم بدلا من الإنتظار الذى غالبا ما يكون بلا جـدوى وبدلا من فـوات الأوان، وقـد تم فـعـلا إنشاء بعض المراكز الخاصة ولكننا نحتاج لمزيد ومزيد منها.

وقـد جـاءنى مـرارا بعض الأسـر التى تسألنى عن رأيى فى إرسـال طفلهم إلى الخـارج للتـعليم ثم التـأهيل

لعدم توافر المراكز والجمعيات فى مصر. وأقول لهم أن أنسب وضع لأى طفل أن يكون بين عـائلتـه وخـاصـة المعاق ذهنيا لأنه دائما.. دائمـا... ما يفتقد الإحساس بالأمان.. ولولا الضرورة والإضطرار ما كنت أنا وزوجى افترقنا عن ابننا الحبيب مطلقاء ونحن لليوم نقاسى من هذا الفراق لأن تامرا كبر ولايعرف من اللغة العربية وسيلة للتفاهم كما أن بيئته التى نشأ فيها تختلف عن بيئتنا وإذا ما عاد إلى هنا فسيفتقد الحياة التى تعود عليها والنظام الذى يلتزم به وسيفتقد الرفاق الذين يفهمهم ويفهمونه.

إن ظروف تامر كانت مختلفة لأننا كنا مقيمين بالخارج بجانبه وكان يزورنا أربع مرات فى العام وفى كل مرة يظل معنا شهراً كاملاً، الصلة بينه وبين أسرته كانت قائمة ومستمرة فكبر متكيفاً مع هذه الحياة، نشأ يحب عائلته ويحب زملاءه.

أننا نعيش الآن **واقعا مختلفاً عما كان من حوالى** ثلاثين عـامـا **فـقـد قـامت صـحـوة فى بلادنا العربيـة**

بخصوص لزوم رعاية المعاق وكذلك قامت الإجتهادات العديدة من قبل الجمعيات الأهلية ومن جانب الدولة وكلها تبشر بالخير.

* * *

حينما أنظر إلى المستقبل أحلم باليوم الذى تنشأ فيه «جمعية الحق فى الحياة» أول دار إقامة للمعاقين، أحلم أن أرى أولادنا يعيشون فيها حياة كريمة سعيدة وآمنة ودائمة وهذا هو التأمين الحقيقى لهم بعد أن يكبر الأهل ويصبحوا غير قادرين على المجاهدة والبذل من أجلهم أو أن يرحلوا عن عالمنا لإنتهاء الأجل.

وحتى تنشئ الجمعية هذا النظام وتطبقه فعلا فى دار تابعة لها لابد أن تتخطى الصعاب التى تواجه هذا المشروع، وهذه الصعاب لاتتمثل فى إيجاد المال لأن أهل الخير كثيرون لكن تتمثل فى إيجاد حلول رسمية تسند لمجلس إدارة الجمعية حق تحمل مسئولية رعاية النزلاء المعاقين بالدار بعد وفاة والدى المعاق. جوانب

هذه المسئولية كثيرة ويلزم دراستها بدقة مع وزارة الشئون الإجتماعية والتأمينات. ويسعدنى هنا أن أذكر بكل التقدير والإحترام التعاون والمساندة والتشجيع الذى نلقاه بصفة مستمرة من إخواننا فى وزارة الشئون الاجتماعية وعلى رأسهم الوزيرة الدكتورة آمال عثمان التى لم تتأخر أبداً عن أى مساعدة لنا فى حدود إمكانياتها.

وعندى أمل أننا سويا بمشيئة الله سنجد الحلول التى تؤمن مستقبل أولادنا وتحمى الدار الخاصة للإقامة الدائمة التى سترعاهم، وعند ذلك ستتمكن الجمعيات الأخرى أن تنشئ دار لمعوقيها على غرار دارنا.

* * *

وأخيراً أقول... عندما ترزق أسرة بطفل معاق ذهنيا تتساءل دائماً: لماذا أتاها هذا الطفل؟ وما السبب؟. ثم يكبر السؤال داخلهم وداخل المحيطين بهم سواء كانوا أقرباء أو غرباء ليتساءلوا هذ المرة بجسارة وإندفاع...

مالزوم خلق مثل هذا الإنسان؟ إنه بلا فائدة... إنه عالة على من حوله ويسبب التعاسة لمن يعاشرونه... إلى آخر هذه الإعتراضات.

ولكنى فهمت الآن... بعد أن قطعت هذا المشوار الطويل.. الطويل والشاق مع ابنى، إن الله سبحانه وتعالى لايمكن أن يهب مخلوقا الحياة دون أن يكون من ورائه حكمة كبيرة يبغيها... ولكن الإنسان بطبعه عجول لايستطيع الصبر حتى يفهم.

لقد كانت الحكمة من خلق تامر بهذه الكيفية وبهذه الظروف السبب وراء التنبه إلى ضرورة العناية بهذا الطفل الخاص جداً... بل إن فى رزق زميلاتى بأطفال مثله، أخف أو أشد وطأة منه، هو ما جعلنا نضع أيدينا فى أيد بعضنا لننشئ هذه الجمعية منذ بدايتها فى حديقة الدلفراند... هؤلاء الأطفال هم من جعل القلوب الخيرة تلتف حولنا بكل إمكاناتها الروحية والمادية، ولايهم الإنسان بعد ذلك أن يكون هو القربان الذى يهدى

الآخرين إلى التفهم والعطاء... ويكون السبب فى عملية تنوير واسعة تعطى الحقوق لنوعية خاصة جداً من البشر.

وأخيراً ... إذا كان هذا الكتاب يدخل الأمل والسكينة إلى قلب أسرة...

وإذا كان هذا الكتاب يلهم أُمًا أن تقوم بنشاط مع أخريات لرعاية عدد معين من أطفالهن...

وإذا كان هذا الكتاب يجعل إنسانا أو إنسانة واحدة تنضم إلى قافلة من يخدمون قضية الإنسان المعاق...

إذا حدث هذا.... فسيكون الجهد الذى بذل فى هذا الكتاب قد وصل إلى غايته.

إيڤلين مصطفى شاكر

* * *

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ

صدق الله العظيم

الفهرس

الموضوع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٢١١٥

I.S.B.N. 977-01-4266-2